موسوعة
عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم

13

NOBILIS

موسوعة عالم الأديان

كلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الكنائس السريانية والأشورية والكلدانية



مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء الثالث عشر

الكنائس السّريانيّة والأشوريّة والكلدانيّة

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	: موسوعَـــة عَالَـــم الأديَـــان كُلُّ الأديان والمَذاهِب والفِرَق والبِدَع في العَالَم
إسم الكِتَاب	: الكَنَائِسُ السِّرْيَانِيَّةُ والأشُورِيَّةُ والكَلدَانِيَّة
الجزء	: الثَّالِث عَشَر
المؤلَف	: مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفرّج
قياس الكتَاب	: ٢٠ × ٢٨
مكَان النَّشر	: بيروت
دار النَّشر والتَّوزيع	: NOBILIS
تلفاكس	: ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتَويات

الفَصلُ الثّالث

الكنيسة السريَانيَّة الكاثُوليكيَّة

الفَصلُ الرَّابع

الكَنيستَان الأشُوريَّةُ والكَلدَانيَّة

الفَصلُ الخَامِس

الكَنائس الهِنديَّة

الفَصلُ السَّادِس

الكَنائِسُ الشَّرقِيَّة والمَجمَع الفَاتِيكَانِيَ الثَّانِي

الفصل الأوّل

الكَنِيسَةُ السّريَانِيّةُ الأُرثُذوكسِيّة

الكَنِيسَةُ السّريَانِيّةُ المُونُوفِيزِيّة؛

يعقُـوب البَرادِعِي؛

المُونُوفِيزِيّة السّريَانيّة قَبلَ الإسْلام؛

بعد الفَتح الإسلامي؛

مِنَ السّريَانِيّةِ إلى العَرَبِيّة.

الكَنِيسَة السّرَيانِيّة المونوفيزِيّة

تسمية الكنيسة السريانية تنطبق اليوم حصرًا على جزءَين من مذاهب الكنيسة التي كانت في الماضي السحيق سريانيّة، دلالة على المسيحيّين من أهل البلاد، في مقابل الكنيسة اليونانيّة التي كانت تعني المتحدّرين من الأصول الهلّينية، هذان الجزءان هما: السريان الأرثذوكس والسريان الكاثوليك.

والسريان أصلاً، هم الذين كانوا يُعرفون قبلاً بالآراميّين، وهم شعب ساميّ يتألف من مجموعة قبائل شماليّة سكنت خلال القرن السادس عشر قبل الميلاد في آرام في شمال بلاد الشام فنُسبت إليها، ثمّ توسّعت حتّى احتلّت، في القرنَين التاسع والثامن قبل الميلاد، بلاد ما بين النهرَين، وانتشرت لغة الشعب الآرامي في بلاد الشام وفارس والهند والجزيرة العربيّة، وأصبحت لغة الشرق كلّه في عهدَي الأمبراطوريّتَين اليونانيّة والرومانيّة. بها كُتب بعض أسفار العهد القديم، وبها تكلّم يسوع وبها كُتب بعض العهد الجديد. ويُعدّ السريان الآراميّون أوّل شعب وثنيّ اعتنق المسيحيّة، وذلك منذ القرن الأوّل الميلادي عن يد بطرس الرسول في أنطاكية وعن يد توما الرسول وتلميذَيه إدّاي وماري في الرها وجميع بقاع بلاد ما بين النهرَين، ومن هناك انطلقت البشرى إلى بلاد فارس والهند. وبحسب بعض الباحثين أنّه منذ اعتنق الآراميّون المسيحيّة بدأوا يحملون اسم "سورايا أو سوريايا" باللهجة الآراميّة، ومعناها مسيحيّ،

وقد تحوّر اللفظ لاحقًا إلى سيريان أو سوريان ومن ثمّ سريان على ألسنة اليونان والرومان. بينما جاء في أبحاث أخرى أنّ لفظة سريانيّ جاءت من سوروس، وهو رجل آراميّ استولى على بلاد الشام وما بين النهرَين ومنه سُمّيت البلاد سورية وأهلها سريانًا[1]. ويقول بعض كبار الباحثين إنّ الآراميّين، سكّان سوريا ولبنان، عندما تنصّروا، تبنّوا لهجة إيدسا، أي الرها الآراميّة وجعلوها لغة الكنيسة والأدب ولغة الطبقة الراقية، وأصبحوا يُعرفون باسم "سريان" أي سكّان سورية، أمّا اسمهم القديم "آراميّون" فقد كان يذكّرهم بوثنيّتهم ولذلك تخلّوا عنه وأصبح لفظ "آرامي" في عقولهم، حتّى وفي معاجمهم، إسمًا مرادفًا للوثنيّة. وهكذا اختفى الإسم الساميّ القديم "آراميّون" وحلّ محلّه الإسم الإغريقيّ الجديد "سريان" أي أهل سورية، وأصبحت اللغة تُسمّى السريانيّة عوضًا عن الإسم القديم: الآراميّة[2]. وما زال إلى اليوم في بعض قرى سورية وشمال العراق بقايا من هذا الشعب تتكلّم اللغة السريانيّة.

أمّا أصل كلمة "مونوفيزيّة" فمركّب من كلمتَين يونانيّتَين MONOS و PHYSIS الأولى تعني "واحد" والثانية تعني "طبيعة"، ومعنى الكلمة المركّبة MONOPHYSIS التي جاءت منها MONOPHYSITISME أي المونوفيزيّة: طبيعة واحدة. ولقد كان أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة قد رفضوا القبول بمبدأ الطبيعتَين: الإلهيّة والبشريّة، في الشخص الواحد للمسيح، الذي أكّد عليه مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١. واعتقد أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بأنّ المظهر البشريّ والإلهيّ في المسيح لا يشكّل سوى طبيعة مركّبة

---

١ ـ الجميل المطران ميخائيل، كنيسة السريان الكاثوليك، في كتاب: تاريخ الكنيسة، دار المشرق (بيروت، ١٩٩٧) ص١٢٥.

٢ ـ حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ، طبعة فرنكلين (بيروت ـ نيويورك،١٩٥٩) ص٢٥٠ ـ ٢٥١.

واحدة، واتّخذوا شعارًا لهم: "الطبيعة الواحدة لكلمة اللّه المتجسّدة". ومن هنا أتى اسمهم: المونوفيزيّون[1].

يعتبر السريان أنّهم هم المؤسّسون لكنيسة أنطاكية[2]، وهي الكنيسة الثانية التي أُسّست بعد الكنيسة الأمّ في أورشليم. وما يميّز الثانية على الأولى، هو أنّ كنيسة أورشليم إنّما كانت، في بدايتها، شبه محصورة باليهود المتنصّرين، بينما اتّخذت كنيسة أنطاكية الطابع الأمميّ. فغدت البوّابة الكبرى التي انطلقت منها المسيحيّة إلى العالم. ومن أنطاكية، كما ذكرنا في أجزاء سابقة، انطلقت التسمية المسيحيّة على المؤمنين بدين يسوع، الذين لم يُعرفوا قبلاً بهذه الصفة، بل كانوا يُعرفون في اليهوديّة ومحيطها باسم النصارى[3].

وسرعان ما غدت كنيسة أنطاكية أمّ كنائس الأمم، وكان بولس وغيره من الدعاة الأوائل للدين المسيحيّ، ينطلقون من أنطاكية للقيام بأعمالهم التبشيريّة ثمّ يعودون إليها لرفع التقارير عن أعمالهم. وبعد أن دمّر الرومان أورشليم سنة ٧٠م[4] ودُمّرت بذلك الكنيسة الأمّ فيها، غدت أنطاكية العاصمة الوحيدة للعالم المسيحيّ[5] واستمرّت كذلك

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٤١٢.

٢ ـ ذكر الأب إسحق أرملة في هذا الصدد في كتابه "النصارى في نكبات النصارى" ص ٣٢ ـ ٣٣، أنّ النصرانيّة ذاعت في بلاد ما بين النهرَين منذ القرن الثاني للتجسّد، وكانت الآراميّة أو السريانيّة لغة المسيحيّين الأوّلين فيها، وقد ورد في أخبار السلف ذكر أساقفة: الرها، وآمد، وتلّ موزل، وكفرتوث، وماردين، ودارا، ونصّيبين، وطورعبدين، ورأس العين، وغيرها، وكانوا بأجمعهم يراجعون البطريرك الأنطاكيّ.

٣ ـ راجع الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

٤ ـ راجع الجزءين الثامن والتاسع من هذه الموسوعة.

٥ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ١: ٣٧٠ ـ ٣٧١.

لعدّة قرون. وكان قد أقبل المقيمون في أنطاكية، عاصمة الشرق، من يونانيّين وثنيّين، على اعتناق الدين الجديد، ما فتح المجال واسعًا أمام انتشار المسيحيّة في سائر المناطق القريبة. إلاّ أنّ هذه الانطلاقة المسيحيّة الواسعة، قد تأثّرت سلبًا بظاهرة لم تسلم منها أيّة دعوة أخرى ظافرة في تاريخ الإنسانيّة: نشوء الملل... والانقسامات.

وقد نشأ فرعان في الكنيسة السريانيّة ببداية عهدها، الأول هو الفرع الشرقيّ الذي اتّبع نِسطور Nestorius (نحو ٣٨٠ ـ ٤٥١) بطريرك القسطنطينيّة (٤٢٨) الذي قال بأقنومَين في المسيح، وأنكر على مريم لقب أمّ الله، فحرمه مجمع أفسس سنة ٤٣١، وعُرِف أتباعه بالنساطرة نسبة إليه، وسيأتي التعريف بكنيستهم، أمّا الفرع الغربيّ من الكنيسة السريانيّة، فهو الذي قال بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهي الطبيعة الإلهيّة دون الطبيعة البشريّة، ورفع العذراء إلى مراتب القدّيسين. وهم الذين لقّبهم خصومهم اليونان باليعاقبة نسبة إلى أحد أنشط دعاتهم يعقوب البرادعي أسقف الرها في أواسط القرن السادس. وكان هذا المذهب قد انتشر من سورية إلى أرمينية شمالاً، ومصر جنوبًا، بينما راح أتباعه في سورية وبلاد ما بين النهرَين بالتناقص منذ أن أصبح الإسلام القوّة المسيطرة في هذه البلاد. ويذكر أحد مؤرّخي الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة أنّه "لمّا تهوّرت بلاد المشرق في بدعة الطبيعة الواحدة، استحوذ رؤساؤها على الأديار والكنائس وأقاموا لهم بطريركًا خصوصيًّا خلع الطاعة للبطريرك الأنطاكيّ الشرعيّ ... وجعل بطاركة السريان مقامهم في دير الزعفران منذ القرن الحادي عشر[1]".

---

١ ـ أرملة، النصارى في نكبات النصارى، ص ٣٢ ـ ٣٣.

حرّم المعتقدَ المونوفيزيّ المجمعُ المسكونيّ الرابع الذي انعقد سنة ٤٥١ في خلقيدونية، بحضور عدد كبير من الأساقفة الذين مثّلوا كنائس الشرق والغرب، وبذلك أصبحت الكنيسة السريانيّة القائلة بالمشيئة الواحدة منشقّة عن الكنيسة البيزنطيّة بفرعَيها الشرقيّ والغربيّ، وقد عُرفت الكنائس التي اتّبعت مقرّرات المجمع المذكور بالكنائس الخلقيدونيّة، نسبة إلى المكان الذي عُقد فيه ذلك المجمع.

وكان الأمبراطور البيزنطيّ يوستينيانُس الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥) قد حاول توطيد الأمبراطوريّة في السياسة والقانون، وخاصّة في الدين، ومن أجل ذلك ضيّق على الذين لم يخضعوا لمقرّرات المجمع الخلقيدونيّ إلى درجة حرمانهم حقوقهم المدنيّة. إلاّ أنّ المونوفيزيّين قد استُثنوا من تلك التدابير لأنّ يوستينيانُس أمل بإمكانيّة التفاهم معهم حول الدستور النيقاويّ من خلال الإجتهاد في بعض تفسيراته، علمًا بأنّ المونوفيزيّين كانوا قد نموا بشكل واسع في الأرجاء الشرقيّة للأمبراطوريّة وخاصّة في مصر. إضافة إلى أنّ ثيودورة THÉODORA، زوجة يوستينيانُس التي كانت شديدة الذكاء والحزم والطموح، وقد ساعدت زوجها في شؤون الحكم وتدخّلت بالسياسة عامّة والدينيّة منها بشكل خاصّ، كانت مقتنعة بالعقيدة المونوفيزيّة، فتمكّنت من إقناع زوجها الأمبراطور بالتساهل مع قادة الكنيسة المونوفيزيّة الذين راحوا ينظّمون أنفسهم في أديار ورهبانيّات. وتطالعنا المدوّنات بذكرٍ للرهبان المونوفيزيّين في أخبار المجمع المسكونيّ الثالث الذي عُقد في أفسس صيف ٤٤٩، حيث استعملوا العنف ضدّ خصمهم فلابيانُس. ومن أخبار الرهبان المونوفيزيّين السريان في فلسطين أنّهم اتّبعوا أفدوكية[١]

---

١ ـ أفدوكية EUDOXIE (ت٤٠٤): زوجة أركاديُس الأمبراطور البيزنطيّ، غضبت على يوحنّا فم الذهب ونفته لأنّه وبّخ بمواعظه أهل البلاط البيزنطيّ على سيرتهم.

التي قالت بالطبيعة الواحدة، وكانت تنفق عليهم بسخاء. وكان قد أمّ فلسطين عدد كبير من النسّاك والرهبان الذين قالوا بالطبيعة الواحدة. وفي حوالى ٤٥١ أصبح هؤلاء الرهبان يشكّلون الأكثريّة في الشرق[١]، يوم كانت الكنيسة بأحبارها منقسمة مناصفة بين الأرثوكسيّة والمونوفيزيّة. حتّى أنّ أحد الرهبان: ثيودوسيوس، قد تزعّم القول بالطبيعة الواحدة. وفي المجمع الخلقيدونيّ سنة ٤٥١ ظهر عدد كبير من الرهبان الذين كانت تتزعّمهم أفدوكية، ويذكر مؤرّخو الكنيسة البيزنطيّة أنّ هؤلاء الرهبان قد اغتاظوا لمقرّرات المجمع الذي حرّم القول بالطبيعة الواحدة، "فقبّحوا وأنكروا وتمادوا في اللوم... وعندما عاد أسقف أورشليم يوبيلانيوس إلى أسقفيّته، حاصره الرهبان المعارضون لمقرّرات المجمع الخلقيدونيّ، وخيّروه بين الموافقة على موقفهم من المجمع، أو الاستقالة والعزلة، فرفض. فأحاط الرهبان به من كلّ جانب وهدّدوه بالقتل. وإذ تمكّن من الفرار، إغتالوا سويريانوس أسقف بيسان... ما أدّى إلى سيامة أساقفة على فلسطين يقولون بالطبيعة الواحدة[٢]. وعندما أرسل الأمبراطور ماركيانوس قوّة عسكريّة للاقتصاص من الرهبان، لجأ هؤلاء إلى العنف، فكانت معركة وقعت قرب نابلس سقط فيها عدد كبير منهم. أمّا الباقون فظلّوا خاضعين لإرادة أفدوكية، ما اضطرّ روما على أن تتدخّل لإنقاذ الوضع، فكتب البابا لاون الكبير إلى أفدوكية يحضّها على إنقاذ الرهبان من الضلال[٣].

---

١ - راجع: ABEL F. M., *HISTOIRE DE LA PALESTINE*, PP. 334 - 340.

٢ - رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، ص ٣٥٤، بالاستناد إلى: BARDY G., *LUTTES CHRISTOLOGIQUES*, IV,

٣ - JAFFÉ WATTENBACH, *REGESTA*, 499.

وكما في فلسطين كذلك في وادي الفرات سار على أفواه النسّاك والرهبان القول بالطبيعة الواحدة. ومنهم راهب اسمه بطرس القصّار، جاء إلى أنطاكية وألّف مجموعة تمكّن من خلالها من التوصّل إلى سدّة الأسقفيّة الأنطاكيّة[1]. إلاّ أنّ هذا العمل أوقع انقسامًا في أنطاكية بعد مشاكسات طويلة السيرة لبطرس المذكور الذي انتقل في ما بعد إلى مصر، وأحدث شرخًا مماثلاً في كنيستها دام أكثر من خمس وثلاثين سنة. فدخلت كنائس الشرق في حالة فوضى درجت فيها سيامة أسقفَين على كلّ كرسيّ، أحدهما أرثذوكسيّ والآخر مونوفيزيّ. وقد استمرّت هذه الأحوال بعد موت بطرس.

يعقُـــوب
البرَادعِي

في هذه الأجواء تمكّنت المونوفيزيّة من كسب القسم الأكبر من سورية الشماليّة قبل نهاية القرن الخامس، ويعود الفضل في نجاحها هذا بدرجة كبيرة إلى الأمبراطورة ثيودورة التي آوت الزعماء المونوفيزيّين عندما دعت الظروف إلى ذلك، وعملت على تمكينهم من نشر معتقدهم ومن الوصول إلى سدّات الرئاسة الكنسيّة عندما أتاح لها الظرف مثل هذه الإمكانيّة. وعندما اتّصل "الأمير الغسّاني الحارث بن جبلة بثيودورة سنة ٥٤٣ ورجاها أن تعيّن أسقفًا يرعى شعبه، أحالت الأمبراطورة طلبه على ثيودوسيُس الإسكندريّ المونوفيزيّ الذي سام مونوفيزيًّا على أساقفة البصرى إسمه

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله، ١: ٣٤٩ بالاستناد إلى: THÉODORE LE LECTEUR, *HIST. ECCL.*, I: 20 - 22

ثيودورُس، وسام أسقفًا على الرها ومتروبوليتًا مسكونيًا إسمه يعقوب البرادعي". وبذلك بدأ الدور الفعّال لهذا الأخير الذي اعتُبر المؤسّس الحقيقيّ للكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة التي حملت اسمه، فعُرفت بالكنيسة اليعقوبيّة.

ذُكر أسقف الرها (٥٤١ ـ ٥٧٠) يعقوب هذا، على أنّه البردعيّ حينًا وعلى أنه البرادعي حينًا آخر، لكنّ الثابت ، إبن قسّ إسمه ثيوفيلُس بن معنو من تلّ موزل، إنتقل إلى القسطنطينيّة سنة ٥٢٨ بعد أن ترهّب في دير فسيلتا القريب من مسقط رأسه، وأجاد السريانيّة واليونانيّة[1].

لا نعلم حقيقة الدافع الذي جعل هذا الرجل يتحمّس للمونوفيزيّة بالشكل الذي تحمّس فيه. بيد أنّ بعض المراجع يفيد عن أنّه "كان ورعًا طاهرًا مجاهدًا رسوليًا من نخبة النسّاك الصوّامين القوّامين ذوي الصلاح والدين المتين[2]". والواقع أنّ يعقوب هذا، بعد ترؤّسه أسقفيّة الرها، راح يطوف الأرجاء مشجّعًا على اعتناق المونوفيزيّة، مؤسّسًا الكنائس لهذا المعتقد حيث طالت يده. وممّا يُروى عنه "أنّه سام في رحلاته العديدة سبعة وعشرين أسقفًا وبضعة آلاف شمّاس وقسّ، وأنّه زار مصر ورسم فيها اثنَي عشر أسقفًا. وشملت رحلاته آسية الصغرة وسورية وما بين النهرَين وفارس ومصر وقبرص ورودوس والعديد من الجزر. وكان حيث لا يستطيع أن يحوّل المعتقد، في مجتمع صغير، إلى المونوفيزيّة، يلجأ إلى سيامة أسقف مونوفيزيّ في مواجهة الأسقف الأرثوذكسيّ، فيصبح، في الأسقفيّة الواحدة، أسقفان. وأقام على

١ ـ راجع: برصوم البطريرك اغناطيوس افرام الأول، كتاب اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانيّة، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

٢ ـ المرجع السابق.

هذه الحال خمسًا وثلاثين سنة، فاعتُبر بحقّ أحد مؤسّسي الكنيسة السريانيّة التي نُسبت إليه، فعُرفت باليعقوبيّة[1]. وهكذا انتشرت اليعقوبيّة في الأوساط العربيّة التي اعتنقت المسيحيّة. وفي وقت قصير أصبح القسم الغربيّ من الكنيسة السوريّة منفصلاً تمامًا عن القسم الشرقيّ. وامتدّ مذهب الطبيعة الواحدة من هذه المنطقة إلى أرمينية شمالاً، حيث لا يزال الأرمن حتّى اليوم على هذا المعتنق، وإلى مصر جنوبًا، حيث الأقباط المونوفيزيّون لا يزالون. وفي وقت من الأوقات أصبحت المونوفيزيّة مسيطرة على القسم الأكبر من شعوب هذه المناطق. ولم تنفع محاولات الأباطرة للحدّ من انتشار هذا المبدأ المناهض للعقيدة الكنسيّة البيزنطيّة في وقف زخم التيّار الجارف الذي اكتسح الشرق المسيحيّ قبل أن يكتسحه الفرس أعداء المسيحيّة.

المُونُوفِيزِيَّة السّرِيَانيَّة قَبْلَ الإسْلام

في هذه الأثناء، وفي سعيه لإيجاد التفاهم بين شطرَي الكنيسة، دعا الأمبراطور يوستينيانُس إلى مجمع كنسيّ عُقد في القسطنطينيّة سنة ٥٣٣ بحضور أساقفة من الفئتَين. فنتج من ذلك المجمع اتّفاق الطرفَين على شجب أوطيخة الذي تمادى في التركيز على الطبيعة الإلهيّة في المسيح، معتبرًا أنّ الطبيعة الإنسانيّة فيه، "ليست سوى نقطة خمر وقعت في بحر ماء، فامتزجت فيه"[2]. إلاّ أنّهم اختلفوا حول "طبيعة" المسيح.

---

١ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله، ١: ٣٧٧ ـ ٣٧٨ بالاستناد إلى NICEPHORUS CALISTUS, *HIST. ECCL.* XVIII: 52.

٢ ـ راجع الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

فقال ممثّلو الكنيسة البيزنطيّة بالطبيعتَين للمسيح، بينما قال المونوفيزيّون، مصريّين، بالطبيعة الواحدة[1]. وإذ حاول الأمبراطور، بعد فشل هذا المجمع، أن يجد اجتهادًا من أجل توحيد الكنيسة، إلاّ أنّه ليس فقط لم يوفّق إلى غايته، بل أدّت اجتهاداته إلى إغضاب الطرفَين[2]. بينما راحت ثيودورة تعمل بكلّ ما أوتيت من سلطة ومقدرة على مساعدة المونوفيزيّين من أجل السيطرة على المراكز الحسّاسة في الكنيسة، فتمكّنت بذلك من إيصال بطريرك على القسطنطينيّة يقول سرًّا بالطبيعة الواحدة بعد وفاة البطريرك إبيفانوس سنة ٥٣٥[3]. أمّا ذلك البطريرك فكان أنثيموس أسقف طرابزون المدينة الواقعة في أرمينية التركيّة على البحر الأسود، الذي كان يتظاهر بالأرثوكسيّة ويُبطن القول بالطبيعة الواحدة إلى أن تبوّأ كرسيّ البطريركيّة. أمام هذا الواقع، انتقل البابا أغابيتوس (بابا روما ٥٣٥ ـ ٥٣٦) إلى القسطنطينيّة فوصلها في الثاني من شباط (فبراير) ٥٣٦، وسرعان ما دعا الأساقفة ومقدّمي الكهنة فيها إلى مجمع محلّيّ برئاسته تمّ فيه قطع أنثيموس ومَن شاركه رأيه، ثمّ انتخب الإكليروس والأمبراطور والشعب الأسقف ميناس بطريركًا على القسطنطينيّة، إثر ذلك لجأ أنثيموس إلى القصر الأمبراطوريّ واختبأ فيه بحماية سيّدته طوال اثنتَي عشرة سنة. وفي الثاني من أيّار (مايو) ٥٣٦ التأم مجمع في القسطنطيّنيّة برئاسة البطريرك ميناس بطريرك القسطنطينيّة وعضويّة أساقفة الكرسيّ القسطنطينيّ وأساقفة الوفد الرومانيّ ووكيلَي بطريرك أنطاكية وبطريرك أورشليم، وقد جرّد ذلك المجمع أنثيموس غيابيًّا من

---

١ - HEFELÉ - LECLERCQ, *HISTOIRE DES CONCILES*, II: 1120 - 1125.

٢ - راجع الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٣ - رستم، كنيسة مدينة الله، ١: ٣٧٦ ـ ٣٧٧ بالاستناد إلى: BRÉHIER L., *POLITIQUE RELIGIEUSE DE JUSTINIEN*, IV: 456.

صلاحيّاته الروحيّة بما في ذلك صلاحيّات الكهنوت وخُلع وقُطع نهائيًّا، كما قَطع ذلك المجمع أساقفة ورجال دين آخرين كانوا يقولون بالطبيعة الواحدة، ومنهم سويرُس الأنطاكيّ المونوفيزيّ الذي قطعه المجمع وأمر بحرق مصنّفاته. قبل ذلك التاريخ، وتحديدًا في العام ٥٣١، كان البطريرك الأنطاكيّ أفراميوس قد قام، مدعومًا من قِبَل الأمبراطور يوستينيانُس، يطالب بنفي كلّ مَن قال بالطبيعة الواحدة في أنطاكية، فكانت ردّة فعل العوام عنيفة، ما أوجب تدخّل السلطات وحصول أحداث دامية مؤلمة. وما أن صدر قرار المجمع القسطنطينيّ بقطع سويرُس وحرق مصنّفاته حتّى هبّ أفراميوس ينفّذ ذلك القرار بالشدّة التي عُرف بها[1].

ويتّضح من مراجعات الإحداثيّات أنّ ملاحقة المونوفيزيّين قد استمرّت في عهد يوستينيانُس الأوّل حتّى وفاته سنة ٥٦٥. بيد أنّ خلفه طيباريُس قد اتّبع سياسة متوازنة تجاه الفرقاء، فأوقف تلك الملاحقة للمونوفيزيّين. وقد اتّبع موريقيُس، الذي خلف طيباريُس على سدّة الأمبراطوريّة طوال عشرين سنة (٥٨٢ ـ ٦٠٢)، سياسة سلفه في موقفه التوفيقيّ من الكنيسة، والمقول إنّه حافظ على أرثذوكسيّته دون أن يتطرّف أو أن يضيّق على المونوفيزيّين وغيرهم، وقد أورد بعض المراجع أنّ القائلين بالمشيئة الواحدة قد جعلوا من هذا الأمبراطور قدّيسًا[2].

ولكنّ الأمبراطور فوكاس الملقّب بالفقّاس الذي كان قائدًا للجيش واغتصب المُلك في العام ٦٠٢ بقتله الأمبرطور موريقيُس Maurikius (٥٨٢ ـ ٦٠٢) الذي كان في

---

١ ـ رستم، مدينة الله، ١: ٣٧٤.

٢ ـ *Légende Syriaque de Maurice*, Patr., Orient., V: 773.

حال حرب مع الفرس والسلافيّين، قد ضيّق على اليعاقبة المونوفيزيّين الذين فرّ رؤساء كنيستهم إلى أماكن قصيّة. وعندما حاول القائلون بالطبيعة الواحدة الاجتماع في إحدى كنائس أنطاكية، فرّقهم العسكر بالقوّة، فسقط منهم ضحايا عديدون. ولمّا استقبل البطريرك الأنطاكيّ بطريرك الأقباط المونوفيزيّ في العام ٦٠٨، أرسل الأمبراطور قوّة عسكريّة أمر قائدها بفضّ الاجتماع. وإذ حاول المونوفيزيّون مواجهة تلك القوّة، حصدت سيوف الجنود مئات الرؤوس في مجزرة بشعة من مجازر الإرهاب السلطويّ في التاريخ[١].

في الوقت نفسه كان اليهود في حال تنازع مع السريان المونوفيزيّين، ويروي بعض المؤرّخين عن أحداث شنيعة وقعت بين الطرفَين في ذلك العهد المظلم من التاريخ[٢]. ومن الثابت أنّ يهود أنطاكية قد استغلّوا الصراعات الداخليّة التي كانت قائمة بين الفرق المسيحيّة، كما استغلّوا الوضع الخارجيّ للأمبراطوريّة الناشئ عن دخول الفرس إلى بعض المناطق السوريّة، فتمكّنوا من قتل العديد من المسيحيّين وأعدموا بعض كبار رجال الدين منهم[٣].

ولكنّ احتلال الفرس هذه المنطقة في حوالى العام ٦١٤ قد أدّى إلى تنشيط المونوفيزيّين السريان وكلّ مَن قال بالطبيعة الواحدة. وعندما جلا الفرس بموجب معاهدة الصلح سنة ٦٢٨ وعادت السلطة البيزنطيّة إلى مكانتها، عاد الصراع بين الكنيستَين، وأُضيف إلى طرفَيه طرف ثالث، هو القائل بالمشيئة الواحدة.

---

١ - راجع: MICHEL LE SYRIEN, II: 375 - 376.

٢ - BRÉHIER L., *ROME ET CONSTANTINOPLE*, FLICHE ET MARTIN, V: 74 - 75.

٣ - THÉOPHANES A., 6101

بعد الفتح الإسلامي

بمراقبة تطوّرات الصراعات الفكريّة والدينيّة في منطقة الشرق الأوسط وتحليلها عشيّة دخول الإسلام إليها، ليس بوسع الباحث ألاّ يتلمّس أنّ نزعة قوميّة قد رافقت تلك الصراعات العقائديّة. ذلك أنّ الفِرق المسيحيّة، أو الكنائس التي ناهضت الأمبراطور، كان قادتها من أهل البلاد الأصليّين دون سواهم. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّه في تلك الحقبة من التاريخ، يوم لم يكن من أحزاب ولا وسيطات سياسيّة داخل الدولة، كانت الزعامة أو القيادة مقتصرة على رجال الدين، وإنّنا نرى في نشوء تلك الكنائس المحليّة نوعًا من الوطنيّة أو القوميّة في مواجهة البيزنط. ويتعزّز رأينا هذا عندما نجد أنّ أكثر أهل البلاد الأصليّين من عرب ومصريّين وفارسيّين ممّن اعتنقوا المسيحيّة في ذلك العصر، لم يخضعوا للكنيسة البيزنطيّة، بل ساروا مع بطاركة وأساقفة ورجال دين ناهضوا الأمبراطور من خلال المعتقد الدينيّ، ربّما لأنّه لم يكن بالإمكان السير بغير تلك المقولة يومذاك. وهكذا نجد أنّ الكنائس "القوميّة"، إذا صحّ التعبير، قد انتعشت لمّا غلبت فارس بيزنطية وإنْ إلى حين. كما نجد أنّ القبائل العربيّة التي اعتنقت المسيحيّة قبل الإسلام، قد اتّبعت الكنائس القائلة بالطبيعة الواحدة. مردّ ذاك، تبعًا لمقولتنا، هو عدم السير في الخطّ البيزنطيّ في مواجهة أحبار من أهل البلاد.

من أولئك الشعوب، إضافة إلى السريان، المصريّون الذين أنشأوا الكنيسة القبطيّة، والغساسنة، أو آل جفنة، وهم من السلالة العربيّة اليمنيّة الأصل التي هجرت بلادها عند انفجار سدّ مأرب في القرن الثالث واستوطنت بلاد حوران وشرق الأردنّ وفينيقية اللبنانيّة وفلسطين الثانية والثالثة قبل الإسلام. وفي حوران صادفوا سكّانًا من العرب أتوا قبلهم وهم: الضجاعم، من قبيلة سليم، فتغلّبوا عليهم وحلّوا مكانهم كحكّام على المنطقة في ظلّ السيادة الرومانيّة.

ومع أنّ الغساسنة قد عملوا في الجيش البيزنطيّ وعُهد إليهم حماية الحدود السوريّة، فإنّهم قد اعتنقوا المسيحيّة المونوفيزيّة في نهاية القرن الثالث، وكانوا عند ظهور الإسلام من أهمّ القبائل العربيّة المتنصّرة. فقد غادر جدود الغساسنة اليمن على أثر حدوث سيل العرم نحو سنة ١٢٠، فأقبلوا إلى تخوم دمشق وسكنوا بلاد حوران وبادية الشام[١]، ونزلوا على ماء يُقال له "غسّان" فصيّروه شربهم وتسمّوا "غسّان" باسمه. وكانوا يدينون بالنصرانيّة[٢]. ثمّ اتّخذوا الجابية في جولان عاصمة لدولتهم التي امتدّت بين دمشق وتدمر[٣] أو بين دمشق والرصافة على شاطئ الفرات[٤]. وابتنوا كنائس في حوران واللجاه والصفا وضمّوا إليها عدّة أديار[٥]. ويذكر مؤرّخون سريان أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ العرب الغساسنة لمّا بلغوا حوران وبادية الشام لاقوا فيها سكّانًا آراميّين يتكلّمون بالآراميّة السريانيّة فامتزجوا بهم وتلقّنوا لغتهم. وظلّ سكّان تلك الأنحاء مونوفيزيّين وملكيّين يستعملون اللسان السريانيّ في كنائسهم ومنازلهم. وقد أثبت ذلك بطريرك الملكيّين مكاريُس الثالث (١٦٤٧ - ١٦٧٢) المعروف بابن الزعيم في تقريره سنة ١٦٧١ عن بدعة الكلوينيّين[٦]. وقد برز من مشاهير أساقفة الغساسنة المونوفيزيّين: بطرس أسقف العرب، فالغ أسقف قبيلة المنذر، توما أسقف يبرود،

---

١ - دي طرّازي الفيكونت فيليب، أصدق ما كان عن تاريخ لبنان (بيروت،١٩٤٨) ٢: ٦، عن: شرح مجاني الأدب، ١: ٥١٣.

٢ - دي طرّازي، أصدق ما كان، ٢: ٦، عن: شرح مجاني الأدب، ٣ : ٣١٢، نقلا عن حمزة الأصبهاني.

٣ - طرّازي، أصدق ما كان، ٢: ٦، عن: المشرق، م٣، س١٩٠٠، ص٢٧٣،٤٤١.

٤ - المجلّة البطريركيّة السريانيّة في القدس، م٥، س١٩٣٨، ص٢٦٦ - ٢٦٨.

٥ - المشرق، م١٠، س١٩٠٨، ص٥٢٤.

٦ - طرّازي، أصدق ما كان، ٢: ٦ - ٧ عن سجلّ المخطوطات العربيّة في مكتبة باريس الأهليّة رقم ٢٢٤.

يوحنّا أسقف تدمر، يوحنّا أسقف حوّاوين وغيرهم. وهؤلاء قد خالفوا تعاليم المجمع الخلقيدونيّ سنة ٤٥١ وأصرّوا، مع أربعين أسقفًا، على القول بطبيعة واحدة في المسيح[1]. كما اشتهر منهم في القرن السابع يوحنّا أسقف بصرى في حوران وقد أنشأ نافورًا باسمه[2]. وقد أورد المؤرّخ السريانيّ الفيكونت فيليب دي طرّازي أسماء سلسلة أساقفة غساسنة مونوفيزيّين في مناطق حوران بين العام ٧٩٣ والعام ١١٣٧. كما أورد سلسلة مماثلة لأساقفة عرب مونوفيزيّين تبوّأوا كرسيّ الرصافة بين ٧٩٣ و٩٨١. وسلسلة تعود إلى الحقبة الواقعة بين ٧٩٣ و١٢٠٠ لأساقفة الرقّة الواقعة على شاطئ نهر الفرات التي كان فيها كرسيّ متروبولوتيّ حيث احتفل الأساقفة بسيامة بعض البطاركة السريان ومنهم ديونيسيُس التلمحري (٨١٨ ـ ٨٤٥)، وذكر من أساقفة الرقّة بولس العلاّمة الكبير الذي نقل إلى السريانيّة كتبًا ذات شأن في القرن السادس أخصّها تآليف البطريرك سويرا الأنطاكيّ (٥١٢ ـ ٥١٨) وخطبه[3].

وهناك أساقفة آخرون ذكرهم ميخائيل الكبير في لائحته واحدًا فواحدًا بعنوان "أسقف العرب" كانوا يرعون نفوس القبائل العربيّة في بلاد حوران وتغلب وسواهما. فكانوا يتنقّلون مع العرب الرحّل في ترحالهم، من هؤلاء شمعون رئيس دير زكّى وهو الثاني والخمسون بين أساقفة البطريرك قرياقُس، ثمّ يوحنّا وخلفه ابراهيم اللذَين نصّبهما ديونيسيُس التلمحري للعرب الرحّل. وكان أساقفة السريان في براري قبائل

---

١ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ٢: ١٠، عن: تاريخ ميخائيل الكبير، ص٢٧٤ ـ ٣١٠، وابن العبري، التاريخ البيعيّ، ج١.

٢ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ٢: ١٠، عن: المشرق، م١، س١٨٩٨، ص٦٣١؛ وداود المطران يوسف، القصارى، ص٣٤.

٣ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ٢: ١٠ ـ ١٥.

تغلب العربيّة يقرّبون القدّاس مترجمًا إلى العربيّة عن الأصل السريانيّ. وقد ذكر الشيخ يحيى بن جرير التكريتي السريانيّ (ت١٠٧٩)، من كتبة القرن الحادي عشر، في كتابه "المرشد" أنّه كان في العرب نصارى كبني تغلب وقوم من اليمن وغيرهم ومعهم أسقف يطوف معهم في سفرهم وينقل المذبح من موضع إلى موضع إلى سنة ثلاثمائة للعرب (٩١٢م) فوصل إلى تكريت قوم من العرب النصارى وابتاعوا لهم ميرة ليمتازوا بها، فقلّد أحدهم المطران تكريت الأسقفيّة، وكان يقدّس لهم باللفظ العربيّ على الإنجيل[١].

يظهر جليًّا من خلال التدقيق في فصول الفتح العربيّ الإسلاميّ للمدن السوريّة، أنّ الأهالي الأصليّين لتلك المدن، وهم من الشعوب الساميّة، قد وجدوا في القادمين المسلمين ما أمكن اعتباره نوعًا من القربى، قياسًا إلى أجنبيّة البيزنطيّين. حتّى أنّ بعض الباحثين خلص إلى أنّ الدمشقيّين لم يروا في الإسلام غير شيعة مسيحيّة منشقّة، أملوا في أن ينالوا معها مزيدًا من الحريّة[٢]. وهكذا نفهم كيف أنّه في خلال سنتَي ٦٣٧ ـ ٦٣٨ استسلم للفاتحين المسلمين، دون معارك، كلّ من بعلبكّ وحمص وحماه وحلب وأنطاكية والمدن الفينيقيّة على الساحل اللبنانيّ. وأُلحقت جميع هذه المدن بالحاكم العسكريّ في دمشق: يزيد بن أبي سفيان. أمّا القدس وقيساريّة في الجنوب، اللتان اصطبغتا بالصبغة الهلّينيّة، فقد حاولتا المقاومة، وصمدت القدس حتّى سنة ٦٣٨ وقيساريّة حتّى سنة ٦٤٠.

---

١ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ٢: ١٥.

٢ - ELISSÉEF, ENCYCLOPÉDIE DE L'ISLAM, *DIMASHK*, II: 288.

وتُجمع المراجع التاريخيّة على أنّه عندما انهزم هرقل بجيوشه إلى القسطنطينيّة، أي إلى بلاد الروم، تبعه أكثر الملكيّين الذين هم من أصول رومانيّة وإغريقيّة، بينما لم يكن بوسع أهل البلاد الأصليّين النزوح بهذه السهولة، فوجد الملكيّون منهم أنفسهم في وضع صعب للغاية. بينما تمتّع غير الملكيّين، وهم القائلون بالمونوفيزيّة، تمتّعوا بامتيازات نسبيّة على سائر المسيحيّين. وبذلك يبدأ فصل جديد من التحوّل الدينيّ في الشرق، إنْ بالنسبة للمعتقد المسيحيّ، أم بالنسبة لمصير المسيحيّة ككلّ.

قبل نهاية ولاية ثاني الخلفاء الراشدين: عمر بن الخطّاب في العام ٦٤٤، كانت الجيوش الإسلاميّة قد أطبقت على الأمبراطوريّتَين الفارسيّة والبيزنطيّة في الشرق. وفي سنة ٦٤٠ تمّ الاستيلاء على مصر التي كانت القبطيّة القائلة بالمونوفيزيّة منتشرة في ربوعها انتشارًا سائدًا، فدخل الأقباط، منذ ذلك التاريخ، في الذمّيّة، وغادر مصر معظم الأروام، ولقد كان لهذا الفتح فعل تحوّل أساسيّ في المسار الدينيّ لمصر وأفريقية عامّة، إذ سوف يتحوّل العديد من أهلها من المسيحيّة المونوفيزيّة إلى الإسلام.

قبل نهاية عهد الخلفاء الراشدين (٦٣٢ ـ ٦٥٦) وبداية العهد الأمويّ، كانت السيطرة الإسلاميّة قد سادت منطقة الشرق الأوسط برمّتها، أمّا العهد الأمويّ (٦٦١ ـ ٧٤٤) فقد ثبّت الدين الجديد فيها بعد أن استوعب حضاراتها، حصل بذلك نوع من التمازج بين الحضارتَين. وفي هذه الدولة العربيّة الإسلاميّة التي اتّخذت من مدينة دمشق عاصمة لها، "قام سكّان هذه المدينة، الآراميّون ـ السريان بلغتهم، والمسيحيّون بدينهم، بدور نافذ في إدارة مصالح الدولة خلال عهد الخلفاء الأمويّين الأوائل. وكانت دواوين الدولة غاصّة بالكتبة المسيحيّين، وكانت لغتها اليونانيّة. وبقي المسيحيّون يسيطرون في البلاط الأمويّ حتّى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) الذي

أحلّ اللغة العربيّة لغة رسميّة في دوائر الدولة بعد أكثر من ستّين سنة على بدء السيادة العربيّة الإسلاميّة[1]". وما من شكّ على الإطلاق في أنّ أكثر الكنائس الواقعة ضمن المنطقة التي سيطر عليها المسلمون في تلك الحقبة كان يقول بالمونوفيزيّة. وكان بطاركة كنيسة أنطاكية البيزنطيّة قد انتقلوا إلى القسطنطينيّة، بسبب السيطرة الإسلاميّة على أنطاكية.

وبالرغم من اتّخاذ الخلفاء الأمويّين لدمشق عاصمة لحكمهم ولدولتهم، فقد بقيت سورية وجوارها حتّى زوال الدولة الأمويّة مسيحيّة بأكثريّة سكّانها. وقد قُدّر عدد السكّان في سورية سنة ٧٢٢ بأربعة ملايين نسمة، لم يكن عدد المسلمين منهم يزيد على المائتَي ألف فحسب، وكانت اللغة المستعملَة في الأوساط الشعبيّة عامّة هي السريانيّة[2].

ويتّضح لنا من المراجعات أنّ وضع الكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة في نهاية العهد الأمويّ لم يكن سيّئًا، على عكس سائر الكنائس. وتطالعنا المراجع بأنّ الخليفة الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) قد غضب على قادة الكنيسة الذين "تخاصموا وتغالبوا في المناظرة بينهم وبين علماء المسلمين" فأمر بقطع لسان البطريرك الأنطاكيّ إسطفانُس الذي انتُخب في عهد هشام، وبقطع لسان متروبوليت دمشق بطرس، ولم ينجُ من الآباء الكبار سوى المونوفيزيّين، وأصحاب الرأي المستقيم البعيدين عن يد الخليفة، ومنهم الذين كانوا يتّخذون من الجبال اللبنانيّة معقلاً لهم.

---

١ ـ بولس جواد، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عودة (بيروت، لا.ت) ص ١٠٧.

٢ ـ CALLOT J. P., *SYRIE*, ENCYCLOPEDIA UNIVERSALIS, 15: 672.

في عهد العبّاسيّين (٦٣٦ ـ ١٢٥٠) عانت الكنيسة السريانيّة كا سواها من كنائس الشرق ممّا فرضه العبّاسيّون من تدابير صارمة على أهل الذمّة. ولم يكن تقريب بعض الشخصيّات المسيحيّة من بلاط الخلفاء، ليعوّض، أدنى تعويض، عن التشدّد الذي مارسه بعض الخلفاء العبّاسيّين ضدّ المسيحيّة. وأبرز هؤلاء المهديّ (٧٧٥ ـ ٧٨٥) الذي أمر بتقويض الكنائس التي ابتناها المسيحيّون في عهد العرب، وأجبر التّوخيّين المسيحيّين المونوفيزيّين في حلب سنة ٧٧٩ على اتّباع الإسلام. وحذا حذوه الخليفة العبّاسيّ الخامس هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) الذي أمر سنة ٨٠٧ بهدم جميع الكنائس التي كانت قد بُنيت قبل الفتح الإسلاميّ. أمّا الخليفة العبّاسيّ العاشر: المتوكّل (٨٢١ ـ ٨٦١) فقد أعاد شرعة التمييز عن طريق إحياء الإجراءات العمريّة التي أتبعها بتدابير جديدة، كانت أشدّ ما فُرض بحقّ الأقليّات على الإطلاق، وكانت نتيجة هذه التشريعات وقوع تعدّيات عديدة على المسيحيّين، منها الفتنة التي وقعت في حمص، بين النصارى والمسلمين سنة ٨٥٥، وقُمعت بضرب أعناق قادتها الذين جُلدوا حتّى الموت، وصُلبوا على أبواب المدينة. ثمّ هُدمت جميع الكنائس إلاّ تلك التي ضُمّت إلى المسجد الكبير، وأُبعد جميع المسيحيّين عن المدينة الهائجة، وقد كان سواد سكّانها، على ما يبدو، من المسيحيّين[1].

هذا التشدّد، أدّى إلى لجوء الكثيرين من وجهاء المسيحيّين إلى المهاجرة من سوريا والعراق نحو آسية الصغرى وجزيرة قبرص وجبال لبنان حيث أنشأوا البيع والأديار والكنائس، بينما أوى عدد كبير من الأسر المسيحيّة في سورية إلى دين

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٦٨ ـ ١٦٩، بالاستناد إلى: الطبري، ٣: ١٣٨٩ ـ ١٣٩٣، ١٤٢٢ ـ ١٤٢٤؛ ابن الأثير، ٧: ٥٩ ـ ٦٠؛ اليعقوبي؛ ٢: ٥٩٩؛ الجاحظ، البيان، ١: ٧٩، س ٢٨.

الإسلام تفاديًا للتدابير المذلّة والضرائب الفادحة، وحرصًا على الكرامة الاجتماعيّة والنفوذ السياسيّ. وجاء في بعض المراجع أنّ حركة التخلّي عن الإيمان المسيحيّ قد تفاقمت عندما تمّت معاملة جميع المسيحيّين، دون تمييز على أنّهم كفّار[1]. وعلى مرّ التاريخ، عانى أتباع هذه الكنيسة ما عاناه سائر المسيحيّين من إذلال واضطهاد، على الرغم من اعتراف الخلفاء بطائفتهم. إلاّ أنّ السريان قد بلغوا في هذه الحقبة عصرهم الذهبيّ في العلم والثقافة، يترجمون ويشرحون، وينقلون من اليونانيّة إلى السريانيّة مبادئ الفلسفة اليونانيّة وكتبها. وقد أسّسوا مدارس ومراكز علميّة عديدة مثل مدرسة نصّيبين والرها وحران وغيرها. أضف إلى ذلك ما كان لهم من تأثير في مدرسة الحكمة ببغداد.

مِنَ السّرِيَانِيَّةِ

إلى العَرَبِيَّـة

في هذه الحقبة، بدأت اللغة العربيّة تحلّ محلّ اللغة السريانيّة في البلاد السوريّة، ومحلّ اللغة القبطيّة في مصر. ولم تُعرف أيّة مؤلّفات للمسيحيّين السوريّين باللغة العربيّة قبل نهاية القرن السابع. وأقدمُ مؤلَّف معروف من هذا النوع، مخطوط محفوظ في المتحف البريطانيّ ألّفه ثيودورُس أبو قرّة المتوفّي سنة ٨٢٠[2].

---

١ - JANIN, *LES ÉGLISES SÉPARÉES D'ORIENT* (BLOUD ET GAY, 1930) P. 156

٢ - راجع: ABU KURRA THEODORUS, *DE CULTU IMAGINUM*, ED., AND TRANS. I. ARENDZEN (BONN, 1897)

كان ثيودورُس هذا أسقفًا ملكانيًا في حرّان. وإذا كان الملكيّون قد بكّروا، نسبيًّا، في اعتماد العربيّة، فإنّ أكثر الكنائس السريانيّة الكبرى، ومنها المارونيّة واليعقوبيّة والنسطوريّة، قد حافظت على اللغة السريانيّة إلى ما بعد العبّاسيّين. وفي العراق بقي الكلدان على لغتهم[١].

ويُجمع المدقّقون في مسار التطوّر التاريخيّ للشرق العربيّ، على أنّ تلك الشعوب المسيحيّة، التي كانت تنطق بالسريانيّة، كان لها فضل عميم على اليقظة العربيّة ونهضة العرب الفكريّة، خاصّة في حقبة الخلافة العبّاسيّة، التي غدت مفخرة العصر الإسلاميّ القديم لناحية الفكر والحضارة. فبين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن التاسع، شهد العالم العربيّ حركة ثقافيّة قلّما عرفها شعب بخلال قرن. وكان من أبرز عناصر تلك الحركة، ترجمة أهمّ المؤلّفات التي كُتبت باليونانيّة والفارسيّة والسريانيّة إلى العربيّة، ممّا أوجد للعربيّ القادم من الصحراء والمتعطّش إلى معرفة، زادًا دسمًا من موادّ الفنّ والفلسفة والعلوم. وكان السريان، وهم من المسيحيّين، الوسطاء، بين الفكر اليونانيّ والعرب، وقد توسّلوا الترجمة للقيام بهذه الوساطة خير قيام. ذلك أنّهم كانوا قد عايشوا اليونان ألف سنة ونيّف، وامتزجت معارفهم بمعارف أولئك، وكذلك المدارس. فإنّ مدرسة أنطاكية كانت تستعمل اللغتَين اليونانيّة والسريانيّة، وكان السريان من أهل البلاد يجيدون اليونانيّة إذا كانوا من أهل المدن، أي أنّهم كانوا مزدوجي اللغة. وكان علماؤهم قد نقلوا إلى السريانيّة أبرز مؤلّفات اليونان قبل الفتح العربيّ، وها هم في زمن العبّاسيّين يجهدون في ترجمة تلك المؤلّفات إلى العربيّة،

---

١ - راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٧١.

بعدما كانوا قد نقلوها إلى الفارسيّة يوم كانت مدرسة الإسكندريّة ناشطة وكان الفرس يحتلّون مصر وجزءًا من الهلال الخصيب.

وهكذا وجد العرب بين أيديهم مؤلّفات أرسطو وسقراط وأفلاطون وجالينُس وأقليدس وبطليمُس وفرخوريُس، فأصبح، في متناول فكرهم، الفلسفة واللاهوت والطبّ والفلك. حتّى أنّ بعض المسيحيّين السريان قد تسنّم في العهد العبّاسيّ مناصب هامّة نظرًا لِما كان يتمتّع به هؤلاء من علم ومعرفة، وقد اشتهر من بين هؤلاء بختيشوع المتوفّي في بداية القرن التاسع، والذي كان رئيس الأطبّاء في مصحّ بغداد في عهد هارون الرشيد. وكان المنصور قد استدعى جرجيس، والد بختيشوع من جنديشابور، حيث كان عميدًا لمعهد الطبّ الذي أنشأه كسرى أنو شروان. وعندما مثل جرجيش أمام الخليفة وقام بالمهمّة الطبيّة التي طلبها منه، أُعجب به المنصور وعرض عليه الدخول في الإسلام، إلاّ أنّ جرجيس بقي متمسكًا بدين آبائه وأجداده[1].

وقد أعطت الكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة، العربيّة في تلك الحقبة، رهطًا من العلماء والمترجمين، أبرزهم قسطا بن لوقا البعلبكّيّ، وتاوفيل الرهاويّ المارونيّ، ويحيى بن عدي.

كان قسطا بن لوقا البعلبكّيّ (٨٢٠ ـ ٩١٢) طبيبًا وفيلسوفًا مسيحيًّا سريانيًّا. نقل إلى العربيّة مؤلّفات اليونان واشتغل في صنع الآلات الفلكيّة. وقد خلّدته مؤلّفات عديدة منها: "المرايا المحرقة" و"الفلاحة اليونانيّة" و"رسالة في الفَرق بين الروح والنفس". وقد تُرجمت مؤلّفاته إلى اللاتينيّة في القرون الوسطى. وكان قسطا "يرحل إلى بلاد الروم

---

١ ـ القفطي، تاريخ الحكماء، (ليبتزك، ١٩٠٣) ص ١٥٨؛ ابن العبري، نشر برنز وكيرتش (ليبتزك، ١٧٨٩) ص ٢١٣.

في طلب الكتب، ويعكف على الإشتغال بها في بغداد. وقد أدركته الوفاة في أرمينية بعد أن خلّف ٦٩ مؤلّفًا موضوعًا و١٧ كتابًا مترجمًا. وأُقيم له في مكان وفاته مدفن تذكاريّ"[1]. أمّا يحيى بن عدي، فهو المعروف بأبي زكريّا المنطقيّ (٨٩٣ ـ ٩٧٤) وهو فيلسوف مسيحيّ من تكريت، بين الموصل وبغداد. تتلمذ على أيدي أبي بشر متّى والفارابي. نقل إلى العربيّة هو الآخر العديد من كتب اليونان، منها كتاب "النفس" لأرسطو، وله مؤلّفات أدبيّة وفلسفيّة ولاهوتيّة عديدة.

وهكذا نجد أنّ نتاج الفكر المسيحيّ السريانيّ قد تحوّل في العصر العبّاسيّ إلى نتاج عربيّ، ممّا فتح للإسلام بابًا واسعًا إلى العالم الرحب الذي كانت تحجبه الصحراء عن مدارك العرب.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٧٧ بالاستناد إلى: الفهرست، ص ٢٩٥؛ القفطي، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ GABRIELI G., IN: *RENDICONTI DELLA REALE ACCAEMIA DEI LINCEI*, SER. 5, VOL. XXI, (ROME, 1912) PP. 361- 382.

الفصلُ الثَّاني

إنتشار الكَنيسَة السّريانيّة المونوفيزيّة

إنتشار الكَنيسَة السّريانيّة المونوفيزيّة؛

في الحقَبة الصليبيَّة؛

تشتُّتُ السّريان؛

الكَنيسَة السّريانيّة الأرثُذوكسيّة (المُونوفيزيّة) اليوم.

إنتشار الكنيسة السّريانيّة المونوفيزيّة

يتّضح من متابعة تاريخ الكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة أنّها حقّقت انتشارًا واسعًا في الأصقاع الممتدّة من سواحل لبنان إلى بلاد فارس والهند. وتسلسل فيها الأساقفة بتتابع حتّى القرن الرابع عشر. وقد أورد مؤرّخو السريان أسماء ٨٦ أسقفًا رسمهم البطريرك قرياقُس (٧٩٣ ـ ٨١٧)؛ ولمّا خلفه البطريرك ديونيسيُس الأول التلمحري (٨١٨ ـ ٨٤٥) حضر سيامته البطريركيّة في بيعة الرقّة الكبرى ٤٨ أسقفًا، وقد رسم هو ٩٩ أسقفًا في خلال ولايته؛ وتولّى كرسيّ البطريركيّة بعده يوحنّا الخامس (٨٤٧ ـ ٨٧٤) الذي رسم ٨٤ أسقفًا؛ ثمّ ديونيسيُس الثاني (٨٩٦ ـ ٩١٩) الذي رسم ٥٠ أسقفًا؛ فيوحنّا التاسع (٩٦٥ ـ ٩٨٦) الذي رسم ٤٦ أسقفًا. وفي المحفوظات أنّ البطريرك أثناسيُس السابع (١٠٩١ ـ ١١٢٩) قد رسم ٦٧ أسقفًا؛ ثمّ ميخائيل الأول الكبير (١١٦٧ ـ ١٢٠٠) الذي نصّب ٥٥ أسقفًا. ويبدو أنّ هؤلاء الأساقفة كانوا بدورهم يرسمون أساقفة لأبرشيّاتهم التابعة للكرسيّ الأنطاكيّ، غير أنّ المؤرّخين لم يدوّنوا أسماء هؤلاء. ولكنّ بعض النتف قد ذكر أسماء أبرشيّات سريانيّة عديدة منتشرة في بلاد الشرق عامّة منها: بيت نوهدرا قرب زاخو، شهرزور، باعربايا، معلثا، جومل، جزيرة إبن عمر، قردو، بازيدي، برطلي وسواها. أضف إلى ذلك أبرشيّات بلاد فارس كالأنبار وهرات ومراغة وتبريز، ثمّ أبرشيّة بيت أرشم بجوار الكوفة، وغيرها. ويتبيّن من المراجعات أنّ عكّازات الأساقفة الخاضعين لبطريركيّة السريان الأنطاكيّة

زاد في القرنَين العاشر والحادي عشر على ١٦٠ عكّازًا في وقت واحد، وكان لصاحب كلّ عكّاز أبرشيّة خاصّة. وقد عدّد البحّاثة السريانيّ الكاثوليكيّ الأب إسحق أرملة أسماء الكراسي الأسقفيّة الخاضعة لبطريركيّة السريان، وأديارًا سريانيّة عديدة تولّى رئاستها الأساقفة في سورية وقيليقيا وبلاد ما بين النهرَين، ظلّت في نموّ وازدهار على رغم ما انتابها من غوائل وكوارث حتّى نهاية العهد الصليبيّ[1]. وذُكر أنّه كان للسريان في ماردين كنيسة قديمة على اسم "شموني الشهيدة[2]" جُدّدت سنة ٧٦٤م.، ودير في جنوبيّ البلاد على اسم مار ميخائيل الناسك جُدّدت كنيسته سنة ١٧٠٤ وفيه ضريح القدّيسة سيراس العائد إلى سنة ٧٨٥م[3]. أمّا كنيستهم الكبيرة فهي على اسم مار بهنام ورفاقه الشهداء الأربعين، لعلّها بُنيت في أواخر القرن الثاني عشر، بعد أن استحلّ المسلمون كنيسة الأربعين شهيدًا ودار المطرانيّة سنة ١١٧٠ وضمّوهما إلى الجامع، واستحوذوا كذلك على كنيسة مار توما الرسول كما أيّد ذلك ابن العبريّ والمؤرّخ الرهاويّ في تاريخَيهما[4].

في الحقبة الصليبيّة

في هذا الوقت، كانت الإنشقاقات في القسطنطينيّة تتسبّب في مزيد من التقهقر المسيحيّ في الشرق، واستمرّت حال الصراع الدائم بين المونوفيزيّين والملكيّين. وقد

---

١ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ١: ٦٨ ـ ٧١، عن: مخطوط المتحف البريطانيّ السريانيّ، رقم ١٠٣٥ ص١٢٠٠ من الفهرس؛ أرملة الخوري إسحق، تاريخ الكنيسة السريانيّة (مخطوط) ف٧، ف٣، ص١٢٦؛ معجم التاريخ والجغرافية الكنسيّ: مقال للمستشرق كرافسكي؛ الفهارس الملحقة بتاريخ ميخائيل الكبير.

٢ ـ شموني الشهيدة: هي، حسب التقليد، الأمّ التي ماتت مع أولادها السبعة في سبيل الإيمان بعهد يوذا المكابي كما جاء في التوراة.

٣ ـ أرملة الأب إسحق، القصارى في نكبات النصارى (١٩١٩) ص٣٣.

٤ ـ أرملة، القصارى في نكبات النصارى، ص ٣٣.

عمل الأمبراطور البيزنطيّ رومانُس الثالث (١٠٢٨ ـ ١٠٣٤) بجهد على إخضاع كنائس الشرق لسلطته. حتّى أنّه استدعى بطريرك السريان يوحنّا الذي كان يقيم في مرعش، ليشخص إليه مع مطارنته وأساقفته، وعندما حضر هؤلاء إلى القسطنطينيّة حاول الأمبراطور، عبر بطريرك عاصمته، أن يفرض على البطريرك المونوفيزيّ نقض معتقده والالتحاق بالكنيسة الأرثذوكسيّة، وعندما بقي السريانيّ مصرًّا مع ثلاثة من أساقفته على المونوفيزيّة، أمر الأمبراطور بنفي البطريرك إلى المغرب، وبسجن الأساقفة الثلاثة، وقد مات الأولّ بعد ثلاث سنوات من نفيه، فأقام السريان لهم بطريركًا جديدًا ما لبث أن التجأ إلى ديار بكر من بلاد الإسلام، هاربًا من طلب الأمبراطور له، ولم يُعرف مصير الأساقفة المسجونين[١].

في المقابل، يذكر مؤرّخون سريان أنّ الصليبيّين قد أطلقوا الحريّة للمسيحيّين عمومًا في قضاء شعائرهم الدينيّة، وأنّ ملوك الصليبيّين وأمراءهم عاملوا السريان المونوفيزيّين معاملة طيّبة ولم يتعرّضوا لهم في الشؤون المذهبيّة على رغم ما بين الصليبيّين اللاتين وما بينهم من اختلاف في العقيدة. وقد ذكر ميخائيل الكبير (١١٢٦ ـ ١١٩٩) وهو بطريرك سريانيّ مونوفيزيّ معاصر للحقبة الصليبيّة، له بالسريانيّة "كتاب الحوليّات" في تاريخ الكنيسة والشرق الذي يُعتبر مرجعًا قيّمًا، أنّ "أساقفة السريان وكهنتهم تمتّعوا بالراحة والسكينة في عهد دولة الصليبيّين، فلم يُلحقوا بنا أدنى أذى، لأنّهم كانوا يعتبرون جميع الساجدين للصليب على حدّ سواء. لا يماحكونهم في المسائل الدينيّة كما يماحكهم أساقفة الروم".

---

١ ـ يحيى ابن سعيد الأنطاكيّ، ص ٢٥٢.

ويبدو أنّ الصليبيّين قد اتّخذوا من السريان المونوفيزيّين معظم الأطبّاء والصيادلة في جيوشهم. وحصروا فيهم أعمال الترجمة في الدوائر الإداريّة التي تألّفت فيها من موظّفي الفريقَين فئة فرنجيّة - سريانيّة نالت إعجاب الرحّالة إبن جبير بتنظيمها وحسن معاملتها[1]. وأنشأ الصليبيّون في كلّ مدينة ودسكرة احتلّوها محكمة من مؤلّفة من ستّة أعضاء: أربعة سريان واثنَين من الإفرنج[2]. وكانت العلاقات بين ملوك الصليبيّين وأحبار السريان على أحسن ما يُرام كما شهد المعاصرون الذين دوّنوا أخبار الحقبة الصليبيّة. فقد ذكر ميخائيل الكبير أنّ البطريرك السريانيّ أثناسيُس السابع (١٠٩١ - ١١٢٩) كانت له منزلة رفيعة عند جوسلين الأمير الصليبيّ، وقد حلّ البطريرك ضيفًا عليه في "تلّ باشر[3]" عاصمته. وبعد وفاة هذا البطريرك استدعى جوسلين إلى "تلّ باشر" أساقفة السريان فعقدوا في كنيسة الإفرنج مجمعًا انتخبوا فيه بطريركًا جديدًا هو يوحنّا الخامس عشر (١١٢٩ - ١١٣٧). وقد احتفلوا في الكنيسة نفسها احتفالاً كبيرًا بتنصيب هذا الحبر الأنطاكيّ السريانيّ وتسليمه العكّاز البطريركيّ بحضور جوسلين ووزرائه وأقطاب دولته. ولمّا جلس البطريرك أثناسيُس الثامن (١١٣٩ - ١١٦٦) سار في أساقفته إلى "تلّ باشر" حيث سلّمه الأمير جوسلين الأمتعة البيعيّة التي كان قد استحضرها من دير برصوما المجاور لملطية، وهو من أعظم أديار السريان اتّخذه بعض البطاركة مركزًا لإقامتهم. وفي سنة ١١٥٧ احتفل هذا البطريرك بتدشين كنيسة ثالثة للسريان في مدينة أنطاكية بحضور الملكة إيزابيل ورهط من الأحبار ورهبان

---

١ - المشرق، م٣١، س١٩٣٣، ص٧٢٥.

٢ - طرّازي، أصدق ما كان، ١: ٦٥، نقلاً عن: راي، المستعمرات الفرنسيّة في سورية في القرنَين ١٢ و١٣، ص٥٩.

٣ - تَل بَاشِر: قلعة كبرى بين حلب والبيرة، في لحفها بلدة كثيرة المياه والبساتين.

السريان والأرمن والإفرنج[1]. ويبدو أنّ جوسلين عندما شعر بدنوّ أجله سنة ١١٥٧ وهو في سجن حلب، استأذن حاكم المدينة في الذهاب إلى كنيسة السريان حيث أتمّ فروضه الدينيّة لدى اغناطيوس مطرانها وتناول الأسرار من يده ثمّ عاد إلى سجنه وفيه توفّي، فشُيّع جثمانه إلى الكنيسة المذكورة في احتفال كبير حضره المسلمون والمسيحيّون ودُفن ضمنها في ضريح خاص[2]. أمّا البطريرك ميخائيل الكبير فقد زار أنطاكية سنة ١١٦٨ بدعوة من إيمريك بطريكها اللاتينيّ حيث جرى له استقبال رسميّ وشعبيّ لافت. وفي ١١٧٩ جال هذا البطريرك نفسه للمرّة الثانية على أنطاكية ومنها توجه إلى أورشليم ، فتفقّد في طريقه أبرشيّات سلوقية واللاذقيّة وعرقا وطرابلس والحدث وجونية وبعلبك وسواها، ثمّ زار الملك بغدوين الثاني في عكّا وأطلعه على الرسالة التي وجّهها إليه البابا اسكندر الثالث، فابتهج الملك بذلك غاية الابتهاج[3]. وممّن كانت لهم علاقة بالصليبيّين البطريرك اغناطيوس الثالث (١٢٢٢ ـ ١٢٥٢) الذي زار أنطاكية ومعه فريق من الأساقفة، ومنها انطلق إلى أورشليم حيث خرج إلى استقباله الإخوة الهيكليّون وحملوه على الأكفّ وأحاطوه بمظاهر الإجلال والتوقير من باب العمود إلى دير مريم المجدليّة[4].

ويجمع المؤرخون على أنّ العلاقات بين السريان والصليبيّين بقيت موثّقة العرى طوال مدّة إقامة الصليبيّين في بلاد الشرق. وقد أشار إلى ذلك البطريرك السريانيّ

---

١ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ١: ٦٦، نقلاً عن: الحروب الصليبيّة في الآثار السريانيّة، ص٧٤ ـ ٧٧، وبرصوم البطريرك افرام، تاريخ العلوم والآداب السريانيّة، ص٥٠٩.

٢ ـ ابن العبري، تاريخ الدول، ص ٣١٦ ـ ٣٢٦.

٣ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ١: ٦٦، نقلاً عن: الحروب الصليبيّة في الآثار السريانيّة، ص١٥٦.

٤ ـ ابن العبري، التاريخ البيعيّ، ج١، في كلامه عن البطريرك اغناطيوس.

اغناطيوس بطرس السادس (١٦٧٨ ـ ١٧٠٢) في رسالة كتبها إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣ ــ ١٧١٥) في ٢ نيسان (إبريل) ١٦٧٨ على أثر جلوسه البطريركيّ جاء فيها:

... ليكن معلومًا لدى عظمتكم العالية ما صنع السريان القدماء مع الأمراء الفرنساويّة في محروسة القدس الشريف والمحبّة والاتفاق بغاية المودّة التي أبدوها أمام السلاطين العظام الذين حكموا عليها[١].

وممّا حفظته الحوليّات أنّ الصليبيّين عندما غادروا الشرق سلّموا إلى السريان ديرَين كبيرَين من أديارهم هما: دير "ستّي مريم" في وادي يوشافاط، ودير "البلمند" بجوار طرابلس. وبقي الدير الأوّل في حيازة السريان من سنة ١٢٨٧ إلى سنة ١٣٩٣، أمّا دير البلمند فظلّ في يدهم من سنة ١٢٨٦ إلى سنة ١٦٠٣[٢]. وفي هذه الحقبة، كانت الكنيسة السريانيّة تضمّ حوالى مليونَي مؤمن[٣].

---

١ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ١: ٦٧، نقلاً عن: سجلاّت المكتبة الأهليّة بباريس، الرسائل العربيّة، رقم ٤٦٢٢.

٢ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ١: ٦٧.

٣ - KOCHASSARLY KHALIL, *EVENTAIL DES ÉGLISES D'ORIENT*, (BRUXELLES,1987) PP. 23 -24.

تشتّتُ السّريان

وفي القرن الثالث عشر اجتاحت جحافل المغول مراكز الثقل لهذه الطائفة في طور عابدين[1] وماردين[2] وتكريت[3] وإربل[4] والموصل[5]، وذبحت أهلها، وقد لجأ الناجون منهم إلى جبال الأناضول الشرقيّة وبعض المدن في سورية وما بين النهرَين ولبنان. وفي السجلاّت السريانيّة ذكر لعدد كبير من الأديار والكنائس والبيع والرعايا السريانيّة المونوفيزيّة في مختلف المناطق اللبنانيّة، تعود تواريخها إلى أزمنة متعدّدة، بعضها يعود إلى القرون المسيحيّة الأولى، وبعضها الآخر إلى حقبات تلت هجرة

١ - **طور عابدين**: عبارة سريانيّة معناها جبل العابدين، هو اسم للجبال الممتدّة بين ماردين في تركية وجزيرة ابن عمر شماليّ ما بين النهرَين، فتحها العرب سنة ٦٤٠، كان فيها عشرات الأديرة والكنائس التي دمّرتها الحروب، أهمّ أديرتها الباقية: دير الزعفران الشهير بالقرب من ماردين.

٢ - **ماردين**: مدينة تركيّة، عدد سكّانها اليوم حوالى ربع مليون نسمة، تقع على مسافة ٤١١ كيلومترًا من حلب، جلا عنها أكثر المسيحيّين بين ١٨٩٥ و١٩١٧ كما سيأتي، شهيرة بقلعتها القديمة، بالقرب منها دير زعفران للسريان المذكور في المرجع السابق.

٣ - **تكريت**: مدينة في العراق على شاطىء دجلة الأيمن شمالي سامراء. هي اليوم مركز قضاء تكريت في محافظة بغداد، سكّانها في الجاهلية بنو إياد النصارى، اشتهرت في العهد العبّاسيّ بقلعتها وصناعة الأصواف، فيها وُلد صلاح الدين الأيوبيّ، هدمها تيمورلنك ١٣٩٤، فيها آثار كنيسة قديمة كانت كرسيًا أسقفيًا كبيرًا للسريان.

٤ - **إربل أو إربيل**: مدينة في العراق، قاعدة محافظة إربيل ومركز القضاء، سكّانها اليوم حوالى مليون ونصف، هي "إربل" القديمة، ورد ذكرها في الكتابات السومريّة الألف ٣ق.م. عُرفت باسم "اربايلو" في العهد الاشوريّ، بالقرب منها انتصر الإسكندر الكبير على داريوس الفارسيّ في معركة كوكاميله.

٥ - **الموصل**: مدينة في العراق، قاعدة محافظة نينوى ومركز قضاء الموصل، سكّانها حوالى ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة، لُقّبت بالحدباء وأمّ الربيعين، تقوم على أنقاض مدينة ساسانيّة (سلالة فارسية)، بدأ انحطاطها بعد مرور المغول ١٢٥٩ وتيمورلنك ١٤٠٠.

السريان إلى لبنان من مناطق مختلفة بسبب الاضطهادات في القرون الوسطى والحديثة نسبيًا[1].

وتقتصر المرويّات السريانيّة حول أحوال الكنيسة السريانيّة في عهد المماليك على نتف قصيرة، منها أنّه في منتصف نيسان (إبريل) ١٢٨٩، وقعت في طرابلس حرب دامية بين المسلمين والصليبيّين، فتغلّب المسلمون وقوّضوا دور المدينة ولم يتركوا برجًا من أبراجها إلاّ دكّوه، ولا كنيسة إلاّ هدموها. وأستأسروا من البنين والبنات عددًا لا يقع تحت الإحصاء. وقتلوا جموعًا من الكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات وتركوا البلد خاليًا. وكان عدد السريان كبيرًا في طرابلس لهم فيها أسقف يرعاهم. وبعد تلك الغائلة الهائلة تصدّع شمل السريان في طرابلس وقلّ عددهم. وفي السنة ١٣٦١ عُيّن للبقيّة الباقية منهم مرقس مطران أورشليم الذي ضُمّت إلى رعايته دمشق وساحل البحر بما فيه طرابلس[2].

يشكو مؤرّخو السريان من قلّة المصادر التاريخيّة عندهم بعد القرن الثالث عشر، ويعزون السبب في ذلك إلى اجتياح عساكر التتر والمغول للبلاد الشرقيّة وفتكهم بمعظم سكّانها وإتلافهم مستنداتها. وإلى أنّ طائفة كبيرة من مؤلّفات السريان المخطوطة في لبنان أو المنقولة إليه من بلاد السريان قد أُتلفت غير مرّة وأُحرقت من قبل الموارنة والبعثات البابويّة بحجّة أنّها تتضمّن أمورًا مخلّة بعقائد الدين. إلاّ أنّه يتبيّن من "زجليّات إبن القلاعي"، أحد أبرز مؤرّخي الموارنة في تلك الحقبة، وهو

---

١ ـ للاطلاع على هذه المعلومات راجع: طرّازي، أصدق ما كان، مرجع سابق.

٢ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ١: ٦٣، عن: إبن العبري، ملحق تاريخ الدول السريانيّ، ص٥٦٦؛ لامنس الأب هنري اليسوعي، تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار، طبعة عبّود (١٩٩٦) ١: ١٥٥.

الذي حارب المونوفيزيّة بشكل عنيف، أنّ السريان قد حقّقوا انتشارًا واسعًا في المناطق اللبنانيّة بعد الحقبة الصليبيّة، وقد أوفدت روما ذلك الأسقف الشهير إلى لبنان نهاية القرن الخامس عشر في مهمّة تهدف إلى منع تسلّل المعتقد المونوفيزيّ إلى الكنيسة المارونيّة على أيدي علماء الكنيسة السريانيّة[1]. وقد جاء في زجليّات إبن القلاعي ما مفاده أنّه في عهد البطريرك المارونيّ لوقا البنهراني (١٢٨٣ ـ ١٢٩٩) تمكّن راهبان مونوفيزيّان من إقناع هذا البطريرك وبعض الموارنة بمعتقد الطبيعة الواحدة، ويبدو أنّ فتنة كبرى قد حصلت بسبب ذلك، فتدخّلت روما، وجرى انتخاب بطريرك آخر حلّ مكان البنهراني هو البطرير أرميا العمشيتيّ (١١٩٩ ـ ١٢٣٠)، إلاّ أنّ الأب بولس قرألي[2] قد مال إلى اعتبار أنّ البنهراني لم يكن في الأساس بطريركًا مارونيًّا بل كان بطريركًا سريانيًّا مونوفيزيًّا مثل نوح البقوفاويّ أحد بطاركة السريان "اليعاقبة" في لبنان. على أنّ مراجعات كافّة المؤرّخين المستقلّين تؤكّد على صحّة وجهة نظر إبن القلاعي. ولكنّ قرألي لم ينكر انحياز بعض المقدّمين إلى المعتقد المونوفيزيّ، ومنهم المقدّم سالم والمقدّم منعم في عهد البطريرك المارونيّ يعقوب الحدثيّ (١٤٤٥ ـ ١٤٦٨) وانضمام قسم من أهالي بشرّي وحردين ولحفد[3] إليهما. وتفيد زجليّات إبن القلاعي أنّ المونوفيزيّة قد انتشرت في جمهور غفير من الموارنة انتشارًا عظيمًا أفضى بهم إلى إقامة أمير لحفديّ عليهم وتنصيب أسقف سريانيّ يدير شؤونهم الدينيّة.

---

١ ـ راجع الجزء الرابع عشرَ من هذه الموسوعة.

٢ ـ بولس قرألي (١٨٨٧ ـ ١٩٥١): كاهن مارونيّ وعالم وبحّاثة، أنشأ "المجلّة البطريركيّة"، نشر مجموعة عن حياة فخر الدين المعنيّ، له أبحاث تاريخيّة كثيرة.

٣ ـ لِحْفِد: مصيف في بلاد جبيل، مسقط رأس إبن القلاعي وثلاثة بطاركة موارنة قبل القرن الخامس عشر.

وأقبل يومئذ كثير من الرهبان السريان وسكنوا في وادي قاديشا وفي دير الفراديس بأرض "بان" بجوار بشرّي. وكان عددهم سنة ١٢٤٢ أربعين راهبًا. غير أنّ المقدّم المارونيّ قد ثار عليهم وقتلهم جميعًا، وقرّر أهالي بشرّي أنّهم لن يساكنوا أحدًا من السريان قطعًا. غير أنّ ذلك لم يمنع توافد رهبان سريان من صفد بعد زمن قصير، وكان يومها مقدّمًا على بشرّي المقدّم سالم، فمال إليهم وانحاز إلى معتقدهم وجعل يدافع عنهم. وبسبب ذلك حدثت فتنة مذهبيّة في بشرّي انتهت بإقامة المدعو نقولا مقدّمًا على بشرّي، فحارب "اليعاقبة" حتّى هزمهم[1].

وروى البطريرك المارونيّ إسطفانوس الدويهي (بطريرك١٦٧٠ ـ ١٧٠٤)، وهو من أبرز مؤرّخي الكنيسة المارونيّة، في حوليّاته ومؤلّفاته ما مفاده أنّ السريان المونوفيزيّين، ويسمّيهم اليعاقبة، قد سكنوا حردين من أعمال البترون وتبعهم أهل القرية الذين بقي بعض منهم على هذا المذهب حتّى زمن الدويهي. وأنّه في سنة ١٣٩٣، انحاز البطريرك المارونيّ داود إلى المونوفيزيّة، فاجتمع رؤساء الكنيسة المارونيّة وعزلوا هذا البطريرك الذي "تسمّى من اليعاقبة حينًا" وأقاموا موضعه البطريرك يوحنّا الجاجي (١٤٠٤ ـ ١٤٤٥)[2].

كما أجمعت المدوّنات المارونيّة على أنّ عبد المنعم الثاني قد تولّى مقدّمية بشرّي في عهد البطريرك الماروني يعقوب الثالث الحدثيّ (١٤٤٥ ـ ١٤٦٨) فدافع عن السريان أكثر من المقدّمين أسلافه، وتحزّب خصوصًا لعيسى أسقف السريان ولموسى

---

١ ـ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص١٢٣.

٢ ـ قابل: الهاشم المونسينيور لويس، تاريخ العاقورة (بيت شباب، لبنان،١٩٣٠) ص١٩٢ الذي ذكر أنّ البطريرك داود كان من العاقورة وأنّ الذي نُصّب مكانه كان البطريرك جبرائيل الثاني الحجوليّ الذي استُشهد في طرابلس سنة ١٣٦٧ على أيدي الحكّام.

بن عطشة التاجر السريانيّ الشهير، وظلّ عبد المنعم على معتقده حتّى وفاته سنة ١٤٩٥.

ويعدّد مؤرّخو السريان بعض مشاهير الإكليروس السريانيّ يومئذ، بعضهم من بقوفا بجوار إهدن، وبعضهم الآخر من حردين البترون ولحفد جبيل[1]. كما يروون عن بعثات بابويّة متلاحقة قصدت لبنان بين القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر ودقّقت في الكتب الدينيّة وأمرت بإتلاف كلّ ما من شأنه أن يمتّ إلى المعتقد المونوفيزيّ بصلة إيجابيّة.

الكَنيسَـــــة السّريانيّـــــــة الأرثُذوكسِيّة (المُونوفِيزيّة) اليوم

أدّى التشتّت المتواصل في ظروف متعدّدة إلى الإضعاف من شأن الكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة التي باتت تُعرف بالكنيسة السريانيّة الأرثذوكسيّة، وقد رافق تهجير أبناء هذه الكنيسة ومحاربة معتقدها معاناة داخليّة أدّت إلى الانقسامات فيها، حتّى إنه في نهاية القرن الثالث عشر كان هنالك ثلاثة رؤساء للكنيسة السريانيّة، وكان يتبع كلاً منهم أساقفة ومؤمنون.

فقد تشرّد عدد كبير من المسيحيّين السريان المونوفيزيّين والكاثوليك القاطنين في شرقيّ تركيا إبّان الحرب العالميّة الأولى. وانتقل المقرّ البطريركيّ المونوفيزيّ الأرثذوكسيّ من دير الزعفران قرب ماردين، إلى جهات الموصل، ثمّ استقرّ في

---

١ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ١: ٨١.

حمص سنة ١٩٣١ إلى أن نقله البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث إلى دمشق عام ١٩٥٩. واستعادت الكنيسة السريانيّة الأرثذوكسيّة حيويّتها بهمّة ثلاثة بطاركة تعاقبوا على رأسها وامتازوا بعلمهم وفضيلتهم.

البطريرك اغناطيوس افرام الأوّل برصوم (١٩٣١ ـ ١٩٥٧): اشتهر بأبحاثه العلميّة في تاريخ الأدب السريانيّ، وله في ذلك كتاب "اللؤلؤ المنثور" المعروف في الأوساط العلميّة.

البطريرك اغناطيوس يعقوب الثالث (١٩٥٧ ـ ١٩٨٠): عمل على توطيد العلاقة بين الكنائس الأرثذوكسيّة غير الخلقيدونيّة، وفتح كنيسته على الحركة المسكونيّة إذ أصبحت عام ١٩٦٠ عضوًا في مجلسي الكنائس العالميّ. وأرسل مراقبين إلى المجمع الفاتيكانيّ الثاني منذ دورته الأولى. وقام بزيارة أولى إلى روما عام ١٩٧١، في عهد البابا بولس السادس، وأصدر بيانًا مشتركًا يوضّح وحدة العقيدتَين الكاثوليكيّة والسريانيّة حول سرّ التجسّد. وقاوم بزيارة ثانية إلى روما قبل وفاته بقليل، في عهد البابا يوحنّا بولس الثاني في أيّار (مايو) ١٩٨٠، وقد توفّي في دمشق في ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٨٠.

البطريرك اغناطيوس زكّا الأوّل عيواص: إنتُخب في ١٢ تمّوز (يوليو) ١٩٨٠ وكان مطرانًا على الموصل ثمّ بغداد. وكان قد مثّل كنيسته كمراقب في المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وشارك في الحوار المسكونيّ بين الكنائس الأرثذوكسيّة غير الخلقيدونيّة. وقد قام بزيارة رسميّة لقداسة البابا يوحنّا بولس الثاني في حزيران (يونيو) ١٩٨٤، فصدر عقب هذه الزيارة بيان رسميّ يوضّح التقارب العقائديّ بين الكنيستَين الكاثوليكيّة والسريانيّة الأرثذوكسيّة، ويسمح بالتعاون الرعائيّ والاشتراك بالقدّاس في بعض الظروف المعيّنة.

وللسريان الأرثوذكس في سورية أربع أبرشيّات، هي دمشق وحمص وحماه وحلب، والجزيرة والفرات. ولهم في لبنان أبرشيّة بيروت وزحلة وأبرشيّة جبل لبنان. وفي الأردنّ أبرشيّة القدس. وفي العراق أبرشيّة بغداد والموصل وأبرشيّة دير مار متّى شرقيّ شماليّ الموصل، ونيابة بطريركيّة في الموصل، وفي تركيا أبرشيّة طور عبدين ومقرّها مزيات، ونيابة بطريركيّة في اسطنبول ومصر. وفي بلاد الإغتراب لهم خمس أبرشيّات: الولايات المتّحدة وكندا، البرازيل، الأرجنتين، السويد، أوروبّا الوسطى (هولّندا).

عدد أبناء الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة (المونوفيزيّة) يتراوح اليوم، بحسب مراجع مختلفة، بين ١٠٠ و٢٠٠ ألف نسمة[١]. وذكرت دراسات أنّ عدد السريان الأرثوذكس، المقيمين في البلدان العربيّة، يبلغ اليوم نحو ١٥٠ ألف نسمة، أكثرهم في سوريا ولبنان والعراق[٢]. أمّا سريان الهند، وعددهم مليونان، فقسم منهم يعترف بسلطة البطريرك السريانيّ الأنطاكيّ (١٦ أبرشيّة)، والقسم الآخر قد أعلن استقلاله ويخضع لكاثوليكوس الهند (٨٩ أبرشيّة). وإنّ فرعًا من سريان الهند الأرثوذكس أعلن اتّحاده بروما عام ١٩٣٠ فشكّل الكنيسة الملنكاريّة[٣].

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

٢ ـ إبراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة في الوطن العربيّ، مركز دراسات الوحدة العربيّة (بيروت، ١٩٨٨)؛ السمّاك محمّد، الأقليّات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٠) ص٢٤.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

الفَصلُ الثَّالِث

الكنيسة السريانيَّة الكاثُوليكِيَّة

الكنيسة السريانِيَة الكاثُوليكِيَّة؛

الإنضِمامُ الرَسمي إلى كَنِيسَة رُومَا؛

الكَنِيسَةُ السّريانِيَة الكَاثُولِيكِيَّة في لُبنَان؛

السّريَانُ الكَاثُوليك اليوم

الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة

في خضمّ تلك الانقسامات، كان بعض أساقفة السريان، منذ أواخر القرن الثاني عشر، يرجعون رويدًا رويدًا إلى طاعة خليفة بطرس زعيم الرسل[1]، ومنهم "موديانا" مطران ماردين الرهاويّ، والمفريان يوحنّا ابن المعدنيّ، والبطريرك عبداللّه اسطيفان، والبطريرك نعمة أصفر[2]، وأثناسيوس بطرس ابن أخيه وغيرهم[3]. وكانت قد حصلت مراسلات بين البابا غريغوريُس التاسع (١٢٢٧ ـ ١٢٤١) والبطريرك السريانيّ اغناطيوس داوود أدّت إلى ارتداد هذا الأخير الذي كتب صورة إيمانيّة وأرسلها إلى البابا ثم جدّدها بعد عشر سنوات على عهد انيقنتيُس الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤). وبعده بحوالى مائة سنة (١٣٤٠) عقد مجمع في جزيرة قبرص، بأمر من البابا بنيديكتُس الثاني عشر (١٣٣٤ ـ ١٣٤٢) حضره رؤساء الطوائف المسيحيّة الشرقيّة في الجزيرة، وفيه جاهر أسقف السريان المونوفيزيّين بإيمان الكنيسة الكاثوليكيّة، على أن تبقى الكنيسة على طقوسها السريانيّة. ثمّ ما لبث قسم من أبنائها ان اتّبع الطقس اللاتينيّ، والتحق القسم الآخر، على ما يبدو، بالموارنة.

---

١ ـ المقصود بابا روما.

٢ ـ هو نفسه نعمة الله أصفر الذي سيرد ذكره لاحقًا.

٣ ـ أرملة، النصارى في نكبات النصارى، ص ٣٢ ـ ٣٣.

بعد مائة سنة أخرى جاءت محاولة جديدة على مستوى مجمع مسكوني إتّحاديّ، هو المجمع الفلورنتينيّ (١٤٣٨ ـ ١٤٤٥) الذي عقده البابا أوجين الرابع (١٤٣١ ـ ١٤٤٧) بهدف اتّحاد الكنائس، وتمّ فيه الاتفاق موقّتًا بين اليونان واللاتين. وقد مثّل الكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة في هذا المجمع البطريرك بهنام الحدلي، فكان من نتائج المجمع أن أصدر البابا أوجين صورة القرار الخاصّ بالسريان في ٤ شباط (فبراير) ١٤٤١. وبعد انتقال المجمع إلى اللاتران في روما، أوفد البطريرك الحدلي المطران عبدالله، مطران الرها، الذي أقرّ، في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٤٤٤ بين يدي البابا المذكور باسم البطريرك وشعبه، بإيمان الكنيسة الكاثوليكيّة. غير أن هذا الاتّحاد انفرط لاحقًا بسبب معاكسات السلطات العثمانيّة وصعوبة الاتّصال بين الشرق والغرب.

وبعد أكثر من مائة سنة أخرى، وتحديدًا في ٢٦ أيار (مايو) ١٥٥٣، تلا موسى، موفد البطريرك اغناطيوس عبدالله، بين يدَي البابا يوليوس الثالث (١٥٥٠ ـ ١٥٥٥) باسمه وباسم بطريركه المونوفيزيّ، دستور الإيمان والتسليم بالمجامع المقدسة. ولكنّ مصير هذا الاعتراف كان كمصير الاعترافات السابقة. إلى أن جاءت المحاولة الأخيرة مع البطريرك نعمة الله أصفر الماردينيّ (١٥٥٧ ـ ١٥٧٦)، عبر مراسلات متبادلة بينه وبين البابا بيوس الرابع (١٥٥٩ ـ ١٥٦٥) وخلفِه بيوس الخامس (١٥٦٦ ـ ١٥٧٢)[١]. إلاّ أنّ هذا البطريرك قد أُكره على اعتناق الاسلام تخلّصًا من الموت، وقد تمكّن في ما بعد من اللجوء إلى روما طالبًا حماية البابا غريغوريُس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥)، وأمضى حياته في الفاتيكان بالتوبة والصلاة والعمل على التحاق

---

١ ـ بيلوني المطران رابولا أنطون، السريان الكاثوليك في لبنان (المنارة، ١٩٨٦) العددان الأول والثاني ص١٥٤.

جماعته بالكنيسة الرومانيّة، فاصطدم بصعوبتَين أفشلتا الاتّفاق: معاكسة الحكّام الأتراك المستمرّة، وتمسّك السريان بطقوسهم وتقاليدهم[1]. وكان البطريرك نعمة اللّه أصفر قد سعى في روما لدى البابا غريغوريُس الثالث عشر في إرسال الأسقف ليوناردو هابيل إلى الشرق ليتّصل بخلفه البطريرك داود شاه (١٥٧٦ ـ ١٥٩١)، وكان داود أخا نعمة اللّه، فبعث البطريرك داود إلى رومة بصورة إيمانه الكاثوليكيّ، ولكنّه عاد إلى معتقد الكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة بعد مدّة وجيزة[2]. ويرى باحثون كنسيّون أنّه إذا كان الأسقف ليوناردو لم ينجح في مهمّته الدينيّة نجاحًا تامًّا، ولم يحصل فورًا على نتائج هامّة، إلاّ أنّه وجّه الأفكار نحو روما، وجعل رجال الإكليروس يشعرون بأضرار الإنشقاق، وأنعش في قلوب الطبقة الراقية الرغبة الصادقة في اتّحاد المسيحيّين، وهذه نتيجة هامّة حصل عليها[3]. علمًا بأنّه كان لليوناردو نشاطًا مماثلاً مع الكنيسة النسطوريّة كما سيأتي.

---

١ ـ بيلوني المطران رابولا أنطون، السريان الكاثوليك في لبنان (المنارة، ١٩٨٦) العددان الأول والثاني ص١٥٤.

٢ ـ يتيم المطران ميشيل والإرشمندريت أغناطيوس ديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة وأهمّ أحداث الكنيسة الغربيّة، منشورات المكتبة البولسيّة، طبعة ٤، (بيروت، لبنان ١٩٩٩) ص٢٨٩.

٣ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص٢٨٩.

الإنضِمامُ الرَّسمي
إلى كَنِيسَةَ رُومَـا

في حوالى العام ١٦٣٠ وصل إلى ماردين عدد من الرهبان الكرمليّين وراحوا يبشّرون الأرمن الغريغوريّين والسريان المنفصلين وينصحونهم بالعودة إلى طاعة الحبر الأعظم، وقد لاقت رسالتهم الكثير من التجاوب. وسنة ١٦٤١ وصل إلى ماردين الأب "يوحنّا سان مَنس" واصطفى السيّد "ملكون طازباز" ولقّنه مبادئ الإيمان الكاثوليكيّ وأوفده إلى مدرسة البروباغندا بروما[١] حيث أتقن العلوم، ثمّ عاد إلى وطنه فتيسّر له أن يؤلّف جماعة من الأرمن الكاثوليك[٢]. بيد أنّ الإتّصالات بين السريان والكثلكة لم تسفر عن نتائج رسميّة قبل القرن السابع عشر، إذ في سنة ١٦٤٩ اعتنق المطران السريانيّ المونوفيزيّ: ديونسيُس قسطنطين، أسقف حلب، المذهب الكاثوليكيّ، وهو على فراش الموت، وخلفه ديونسيُس توما، وكان يؤيّد الكثلكة، ففتح كنيسته لوعظ الرهبان المرسلين وتبشيرهم. وكان القنصل الفرنسيّ: فرنسوا بيكه، خير مساعد لهم في مهمّتهم الدينية. ولمّا مات المطران توما سنة ١٦٥٦ سعى القنصل بيكه لدى البطريرك شمعون في طور عابدين ليقيم أندراوس أخيجان[٣] أسقفًا على أبرشيّة

---

١ ـ البروباغَندا: من مدارس روما للعلوم الدينيّة، يتثقّف فيها الكهنة من أنحاء العالم، أسّست ١٦٢٢ على عهد البابا غريغوريُس الخامس عشر (١٦٢١ ـ ١٦٢٣).

٢ ـ أرملة، القصارى في نكبات النصارى، ص ٣٦ ـ ٣٨.

٣ ـ أندراوس أو أندره أخيجان: هو ابن عبد العال الماردينيّ الشمسيّ اليعقوبيّ، اعتنق الكثلكة على يد أحد المرسلين الكرمليّين بحلب، يمّم شطر لبنان وحلّ في دير قنّوبين عند البطريرك المارونيّ يوسف العاقوريّ (بطريرك ١٦٤٤ ـ ١٦٤٨)، سافر إلى روما ودرس في المدرسة المارونيّة سنتَين، عاد إلى لبنان وأقام عند البطريرك المارونيّ يوحنّا الصفراويّ (بطريرك ١٦٤٨ ـ ١٦٥٦) الذي سامه كاهنًا وعيّنه نائبًا عنه في قبرص وعكّار فشغل هذه الوظيفة خمس سنوات، وإذ كانت أواصر الصداقة قويّة بين البطريرك

حلب السريانيّة، فنجح في مسعاه[1].

لاقى المطران أخيجان في حلب مقاومة عنيفة من بعض أبناء ملّته ومن السلطات العثمانيّة رغم فرمان الإعتراف السلطانيّ، فاضطرّ إلى ترك المدينة واللجوء إلى لبنان؛ غير أنّ عددًا كبيرًا من أبناء رعيّته قد ألحّ عليه للعودة إلى حلب، وكذلك فعل المرسَلون، فعاد إليها في ١٢ آذار (مارس) ١٦٥٨. إثر هذه العودة، ثبّته البابا ألكسندرُس السابع (١٦٥٥ ـ ١٦٦٧) أسقفًا على حلب، وفي ربيع ١٦٦٠ عُقد اجتماع اشترك فيه ممثّلون عن الروم والأرمن والسريان، اعترفوا بخلاله بصحّة المذهب الكاثوليكيّ. وإذ تمكّن المطران أندراوس أخيجان، بغيرته وجهوده، من استمالة قلوب مقاوميه، فعندما توفّي بطريرك السريان شمعون اجتمع سريان حلب الكاثوليك وأعلنوا أنداروس بطريركًا على عموم الكنيسة السريانيّة في ١٩ نيسان (إبريل) ١٦٦٢، فاعترف به السلطان محمّد الرابع مُصدِرًا البراءة وأمرًا همايونيًّا في ١.٣ آب (أغسطس) ١٦٦٢، ومنحه البابا ألكسندرُس السابع درع التثبيت في ٢٢ تمّوز (يوليو) ١٦٦٣[2].

إلاّ أنّ هذا الواقع، الذي كان له فعل الجمع في الكنيسة، قد أدّى في الوقت نفسه إلى انقسام آخر. هذا الانقسام كان داخل الكنيسة السريانيّة بالذات. فلقد قاوم قسم من

شمعون والقنصل بيكه، تمكّن القنصل من حمل البطريرك على اختيار كاهن سريانيّ كاثوليكيّ ليكون مطرانًا على أبرشيّة حلب خلفًا للمطران توما الذي توفّي سنة ١٦٥٦ فوقع الاختيار على أخيجان الذي قبل الرسامة الأسقفيّة من البطريرك المارونيّ يوحنّا الصفراويّ في ٢٩ حزيران (يونيو) ١٦٥٦ ونال في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) فرمانًا سلطانيًا من محمّد الرابع عشر يعترف به رئيس أساقفة أبرشيّة حلب السريانيّة.

١ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص٣٤٠.

٢ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص ٣٤٠ – ٣٤١؛ راجع: أرملة، النصارى في نكبات النصارى، ص ٣٣.

السريان، وهم المونوفيزيّون الذين أطلقوا على كنيستهم إسم كنيسة السريان الأرثوكس، هذا الإعتراف بالكنيسة الكاثوليكيّة. وقد استفاد الأتراك العثمانيّون من هذه المنازعات، فكانوا تارة يساندون هذه الفئة، وطورًا تلك، سواء بالرشوة أو المراوغة أو الدسائس. واستمرّت هذه المأساة على عهد البطريرك الكاثوليكيّ الثاني اغناطيوس بطرس شهبادين، الذي خلف أخيجان، بعد أن كان هذا الأخير قد أسّس سنة ١٦٧٠ في حلب جمعيّة رهبانيّة نسائيّة أثارت بفضائل أعضائها إعجاب الجميع[١]، وجال في بلاد ما بين النهرَين، ثمّ عاد إلى حلب وفيها توفّي في ١٨ تمّوز (يونيو) ١٦٧٧[٢].

كان البطريرك الكاثوليكيّ السريانيّ الثاني (١٦٧٧ ـ ١٧٠٢) اغناطيوس بطرس شهبادين رئيس أساقفة القدس، وكانت أبرشيّته مثقلة بالديون، فسافر إلى العراق يستجدي حسنات المؤمنين، ومرّ في طريقه بمدينة حلب، واتّصل بالبطريرك أندراوس أخيجان الذي أُعجب بما كان يتحلّى به هذا الحبر من الصفات النبيلة والفضائل السامية. فلمّا توفّي أخيجان أجمع الكلّ على انتخابه بطريركًا، ودعوه إلى حلب، فأقبل إليها، واشترك في حفلة تنصيبه ثمانية من الأحبار الكاثوليك من مختلف الطوائف. وسرعان ما رسم البطريرك الجديد ثلاثة أساقفة لأبرشيّات القدس وحلب ونينوى. وكتب رسالة إلى البابا ضمّنها صورة معتقده[٣]. إلاّ أنّ هذا البطريرك قد تحمّل كثيرًا من الاضطهادات، فذاق السجن والضرب والنفي. فقد أدّت الدسائس إلى خلعه عن

---

١ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص٣٤٠ ـ ٣٤١.

٢ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص ٣٤٠ – ٣٤١؛ راجع: أرملة، القصارى في نكبات النصارى، ص ٣٣.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص٣٤١ ـ ٣٤٢.

كرسيّ البطريركيّة خمس مرّات، هرب في إحداها إلى لبنان طالبًا حماية البطريرك المارونيّ إسطفانوس الدويهي (بطريرك ١٦٧٠ ـ ١٧٠٤) في قنّوبين. وفي ١٤ آب (أغسطس) ١٧٠١ أصدر مفتي المسلمين في الآستانة، الشيخ فضل الله، بناءً على شكوى كاذبة، أمرًا إلى قاضي حلب بإلقاء القبض على هذا البطريرك وعلى مطران حلب رزق الله أمين خان وعدد من الكهنة والرهبان السريان الكاثوليك، فزجّهم في السجن مدّة ثمانين يومًا أُذيقوا بخلالها شتّى أنواع الإهانات والتعذيب والتجويع، ثمّ صدر أمر بنفيهم إلى قلعة أدنه، فسيقوا سيرًا على الأقدام حتّى الإسكندرون، ورغم تدخّل نائب قنصل فرنسا للتخفيف من وطأة هذه الاجراءات، استمرّ تنفيذ المقرّر. وما إن وصل المنفيّون إلى السجن حتّى فارق المطران الحياة. وتبعه البطريرك بعد أربعة أشهر إلى دنيا الآخرة في ٤ آذار (مارس) ١٧٠٢وهو أيضًا في المنفى، فاعتُبرا شهيدَين، وكان البطريرك اغناطيوس بطرس شهبادين الشهيد في أثناء نضاله في سبيل الإيمان قدوة صالحة لأبناء طائفته، ومثالاً حيًّا للشهامة والفضيلة [1]. وبقي الرهبان الثلاثة الآخرون معتقلين حتّى سنة ١٧٠٤، ولم يُفرج عنهم إلاّ بعد تدخّل السفير الفرنسيّ وإلحاحه. فقصد الناجون الثلاثة دير قنّوبين حيث أشار عليهم البطريرك المارونيّ يعقوب عوّاد الحصرونيّ (بطريرك ١٧٠٥ ـ ١٧٣٣) بالذهاب إلى بلدة الشبانيّة [2] في المتن ليكونوا في منأى عن سلطة باشا طرابلس. وبعد عناء طويل تمكّنوا من بناء دير في جوار الشبانيّة على اسم القديس افرام، عُرف باسم دير ما افرام الرغم. غير أنّ هذا الدير لم يصمد في وجه فتنتَي ١٨٤٠ و١٨٦٠

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص٣٤١ ـ ٣٤٢.

٢ ـ الشبانيّة: مصيف في قضاء بعبدا الذي كان يُعرف بالمتن الجنوبيّ، يتقاسم السكن فيه موارنة ودروز.

الدمويّتَين اللتَين وقعتا بين المسيحيّين والدروز، إذ دُمِّر تمامًا بعد أن نُبح رهبانه وأُحرقت مكتبته.

وما بين ١٦٨١ و١٨٥٠ بقي المرسَلون الكرمليّون واليسوعيّون يصلون إلى ماردين لهداية المونوفيزيّين السريان والأرمن إلى الدين الكاثوليكيّ، وبنوا الكنائس التي لا تزال بحوزة السريان الكاثوليك. وأقام السيّد "نقولا كستلس" القاصد الرسوليّ في ماردين حتّى سنة ١٨٧٠ تاريخ وفاته، ودُفن في كنيسة الآباء الكبّوشيّين، وخلفه السيّد زكريّا القاصد الرسوليّ الذي توفّي هو أيضًا في ماردين ودُفن في الكنيسة نفسها. وتناوب الآباء الكبّوشيّون في خدمة كاثوليك ماردين منذ أوائل القرن التاسع عشر، وعُرف منهم الأب "مرسلينو" الذي جرت في عهده مسألة انضمام جماعة من طائفة السريان الكاثوليك إلى الكنيسة الكبّوشيّة، فصدرت الأوامر من لدن الكرسيّ الرسوليّ بأن يعود كلّ إلى طقسه. كما ابتنت الراهبات الفرنسيسيّات ديرًا ومدرسة وخصّصن حياتهنّ لتعليم الفتيات الأصول الدينيّة والأشغال اليدويّة [1].

ويعتبر باحثون كنسيّون أنّه كان للدبلوماسيّين الغربيّين، في هذه الحقبة، فضل عظيم في تكوين الطوائف الكاثوليكيّة في الشرق. فقد استفادوا من الاتّفاقيّة المعقودة بين فرنسا والدولة العثمانيّة، عام ١٧٤٠، فسمحوا للمرسَلين الغربيّين بالبقاء في الشرق والانتشار فيه. وقد عمل المرسَلون الشيء الكثير في تأسيس الطوائف الشرقيّة الكاثوليكيّة ودعمها وتقوية مشاريعها وإعداد إكليروسها للحياة الكهنوتيّة. وكان

---

١ ـ أرملة، النصارى في نكبات النصارى، ص ٣٦ ـ ٣٨.

للدبلوماسيّين الأوروبّيين من سفراء وقناصل تأثير مباشر في تحسين أوضاع الشرقيّين وجلبهم إلى الكثلكة. فقد دافعوا عنهم أثناء الاضطهاد لدى الباب العالي والباشوات الأتراك، وكان دفاعهم مستندًا إلى الصداقة الشخصيّة لا غير. وكان الكثيرون من القناصل في مدينة حلب ودمشق وصيدا وغيرها من المدن الشرقيّة أصحاب سيرة حميدة وتقوى راسخة، اختلطوا بالشرقيّين في المجتمعات والكنائس، فاطّلع هؤلاء على فضائلهم، ومالوا إلى المذهب الكاثوليكيّ، واتّحد الكثيرون منهم بالكنيسة الرومانيّة. وقد تجلّى عمل الدبلوماسيّين الغربيّين بنوع خاصّ في أمرَين هامَّين، ألا وهما حمل البطاركة والشعب على انتخاب أساقفة كاثوليكيّين، ودفع الحكومة العثمانيّة إلى الاعتراف بالبطاركة والأساقفة الكاثوليكيّين وتحريرهم من تبعة البطاركة غير الكاثوليك تحريرًا سياسيًّا. هذان الأمران قد مكّنا المذهب الكاثوليكيّ من الانتشار في معظم مدن الشرق، وسمحا للطوائف الكاثوليكيّة الناشئة بأن تتمتّع بكيان شرعيّ، وتزدهر في ظلّ القانون بحريّة واسعة[1].

الكَنِيسَـةُ السّريَانِيَّة الكَاثُولِيكِيَّةُ في لُبنَان

حُرمت الطائفة السريانيّة الكاثوليكيّة بعد وفاة البطريرك اغناطيوس بطرس شهبادين سنة ١٧٠٢ من راعٍ يدبّر شؤونها مدّة ثمانين عامًا. وكان الحبر الأعظم قد أقام خلفًا للبطريرك نائبًا بطريركيًّا، وكان النوّاب البطريركيّون يقيمون بلبنان، وينتقلون

١ - يتيم وديك، مرجع سابق، ص٢٨٩.

إلى حلب ودمشق من وقت لآخر لمدد قصيرة، يتفقّدون في خلالها شؤون كنيستهم، ثمّ يعودون إلى مقرّ إقامتهم. ودامت الأمور على هذه الحال حتّى سنة ١٧٨٣، حين انتخب السريان الكاثوليك لهم بطريركًا حمل لقب "بطريرك أنطاكية"، وهو البطريرك ميخائيل جروه. وقد اهتمّ بطاركة الروم الكاثوليك بشؤون السريان الكاثوليك اهتمامًا كبيرًا في تلك الحقبة، فالبطريرك كيرلّس طاناس (ت١٧٥٩) الملكيّ الكاثوليكيّ رسم للطائفة السريانيّة أربعة أساقفة، منهم نائبان بطريركيّان هما: المطران غريغوريُس نعمة القدسيّ سنة ١٧٣١، وخلفه غريغوريُس جبرائيل فيزون سنة ١٧٤٠، وقد أقاما في دير مار إفرام الغرم في الشبانيّة من أعمال المتن في لبنان [1].

لم يكن حظّ البطريرك السريانيّ الكاثوليكيّ الثالث (١٧٨٣ ــ ١٨٠١) بأفضل من حظّ سلفَيه. هذا البطريرك هو ميخائيل الثالث جروه الذي اضطرّ هو الآخر إلى اللجوء إلى لبنان.

ففي أواخر القرن الثامن عشر نشطت فكرة الاتّحاد مع روما بين السريان المونوفيزيّين، فاعتنق العديد منهم الكثلكة في مدن حلب وماردين والموصل، وبينهم عدّة أساقفة. وفي تلك الحقبة، عقد البطريرك السريانيّ المونوفيزيّ جرجس الرابع مجمعًا سنة ١٧٨٢ حضره أساقفة الكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة، وكان بينهم المطران ميخائيل جروه رئيس أساقفة حلب. وكان ميخائيل ميّالاً إلى الكثلكة يؤيّدها ويدافع عنها، فأخذ يزرع في قلوب الأساقفة الملتئمين في المجمع فكرة الاتّحاد بالكنيسة الرومانيّة، وجعل يدعو الناس إليها بحماسة. ونجح لدى أبناء رعيّته نجاحًا باهرًا،

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٧.

فاعتنق كلّ سريان حلب المذهب الكاثوليكيّ، أمّا في الموصل فلم يقبل الكثلكة إلاّ كاهنان وبعض أفراد الشعب. ولمّا مرض البطريرك السريانيّ المونوفيزيّ جرجس الرابع سنة ١٧٨٢ وأشرف على الموت، عاده بعض الأساقفة والكهنة والوجهاء ورجوه أن يعيّن مَن يخلفه لئلاّ تتقسم الطائفة على نفسها بعد وفاته. فعيّن المطران ميخائيل جروه خلفًا له. فانطلق ميخائيل إلى ماردين حيث راح يبشّر بالمذهب الكاثوليكيّ، فانضمّ إليه كهنة هذه المدينة وكثير من المؤمنين وخمسة من الأساقفة. وفي ماردين، انتُخب ميخائيل جروه بطريركًا لعموم الكنيسة السريانيّة، وجرى الاحتفال بتنصيبه في ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٧٨٢ في دير الزعفران. ولكن بعد ثلاثة عشر يومًا قام معارضو الكثلكة من أساقفة الإكليروس السريانيّ المونوفيزيّ بانتخاب بطريرك آخر، هو المطران متّى أسقف الموصل، فسارع الأتراك إلى الاعتراف به بدعم من بطريرك الأرمن الغريغوريّين، وخلعوا جَروه وألقوه في السجن ببغداد [1].

بعد خروجه من السجن، تسلّل البطريرك غناطيوس ميخائيل جروه من بغداد ليلاً خفية متنكّرًا بثوب الأعراب في ٦ آذار (مارس) ١٧٨٤، ومشى بصحبة رفيقَين حتّى وصلوا إلى خارج المدينة. ومن هناك، استكروا خمسة جمال يقودهم ثلاثة إعرابيّين لقاء مائة ليرة ذهبيّة، وقد صحب البطريرك الشمّاسان يعقوب بوظو، وزكريّا، ثم لحق بهم الشمّاس توما إضافة إلى خادم البطريرك: دانيّال. وسار القوم في القفر الخالي من الماء والقوت، والغنيّ بالوحوش الضارية وسفّاكي الدماء. ولقد آسوا من الجوع

---

١ - بيلوني، مرجع سابق، ص١٥٥ - ١٥٧؛ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

والعطش وركوب الجمال ليلاً نهارًا ما جعلهم يتحقّقون من موتهم المحتّم، خاصة بعد أن دبّت القروح في أجسادهم، وقد نزف البطريرك دماء كثيرة فبدا لصحبه أنّه لن ينجو إلاّ بأعجوبة. ولكنّهم تمكّنوا، على هذا المنوال، من الوصول إلى تدمر بعد خمسة عشر يومًا مختصرين مسافة يلزمها ستّون يومًا من المسير. وفي تدمر تخلّى الإعرابيّون المرافقون عن البطريرك وصحبه إذ وصلت إلى آذانهم أخبار ملاحقة والي الشام لهم. غير أنّ إعرابيًا آخر من تدمر حنّ على القوم وأركب البطريرك جمله مخاطرًا بحياته ونقله إلى القريتين. ومن هناك ركبوا الحمير مصطحبين معهم أُناسًا مسلمين ليوصلوهم إلى قرب الشام، وقد رفض أهالي قرية العدرى المسلمون إيواءهم، ما اضطرّهم إلى التخفّي مدّة يومَين في القفر، ومعهم الإعرابيّ الذي قبض ثمن خدماته ما طلب. وإذ أرسل البطريك ساعيًا إلى الكاهن السريانيّ وجماعته في الشام ليخبرهم سرًّا بوصوله، ارتعد الكاهن فأجبَن، وردّ الساعي ومعه كتاب للبطريرك فيه أنّه ورعيّته يخافون التظاهر بكونهم من جماعة البطريرك. فلم يكن أمام القوم سوى التسلّل، بكلّ ما في ذلك من صعوبات، إلى جبل كسروان في لبنان. فوصلوه يوم السبت العظيم ليلة أحد القيامة من سنة ١٧٨٤، ونزل جروه في دير خرب في بيت شباب هو دير ما أنطونيوس النبع. أمّا صحبه فقد تفرّق بين ماردين وحلب ومصر وسواها، ولم يبقَ معه سوى اثنَين.

بعد انقضاء الربيع على البطريرك السريانيّ الكاثوليكيّ لاجئًا إلى ذلك الدير الخرب، قصد بيت أحد الفلاّحين في بيت شباب، وهو جريس أبي فيّاض، فاستأجره في ٧ آب (أغسطس) ١٧٨٤. في هذه الأثناء حضر إلى البطريرك المطران أيونيس نعمة الله الصدّي، وكان من أصدق المطارنة ولاءً له، وكان معه شمّاسه، فأصبحت القافلة تضمّ ستّة أشخاص ليس لديهم من وسائل العيش أدناها. ثم سار البطريرك وصحبه إلى

كسروان حيث استأجروا بيتًا صغيرًا في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٨٤ على أن يدفعوا إيجاره الزهيد شهريًّا لمدّة سنتَين.

ذلك المكان، الذي استأجره البطريرك السريانيّ الكاثوليكيّ غناطيوس ميخائيل جروه الحلبيّ نهاية سنة ١٧٨٤، كان قد بناه الخوري مارون الطرابلسيّ المارونيّ ديرًا صغيرًا على اسم سيّدة النجاة على شرفة درعون، فعُرف بدير الشرفة. والخوري مارون هذا، هو حفيد الخوري يوسف صالح الدويهي الذي سيم مطرانًا عام ١٧٢٨ على البترون بوضع يد البطريك يعقوب عوّاد (١٧٠٥ ـ ١٧٣٣) وسمّاه إسطفانوس الدويهي، وهو الذي أصبح في ما بعد بطريركًا على الطائفة المارونيّة، وهو من أبرز بطاركتها، وهناك اليوم دعوى طلب تطويبه.

كانت الأرض التي بنى عليها الخوري مارون طرابلسيّ دير الشرفة ملكًا للشيخ نوفل الخازن، وقد قرّر المشايخ الخوازنة في تمّوز (يوليو) ١٧٥٤ أن يبيعوها من القسّ مارون بثمن زهيد، شرط أن يبني عليها مدرسة يعلّم فيها الفتيان مبادئ السريانيّة والعربيّة والأصول الدينيّة، وهذا ما يدلّ عليه صكّ البيع المحفوظ في دير الشرفة.

ما لبث البطريرك جروه أن اشترى هذا الدير بمبلغ ٢٥٠٠ قرش، ألفٌ منه تبرّع به الشيخ غندور السعد[1]. وابتداءً من صيف ١٧٨٦ راح البطريرك يشيِّد بعض الغرف لسكناه وحاشيته والتلامذة الذين أزمع أن يستحضرهم من أطراف البلاد. وفي سنة

---

١ ـ الشيخ غندور السعد (١٧٥٧ ـ ١٧٩٠): من أعيان لبنان، ولد في رشميّا قضاء عاليه، خلف والده سعد الخوري كمدير للأمير يوسف الشهابيّ، عيّن قنصلاً في بيروت ١٧٨٧، لحق بالأمير يوسف إلى عكّا حيث كان معتقلاً ليفتديه بالمال بناء على طلب الجزّار الذي أخذ منه المال وأمر بقتله غدرًا بعد قتل الأمير يوسف.

١٧٨٧ أطلق على الدير عنوان: دير الكرسي. وكتب مرارًا فـي دفتر حسـاباته يقـول: بيان ما نصرفه على دير الكرسي. وجعل يوقّع مناشيره وعرائضـه الرسـميّة بعبـارة: صدر عن كرسينا الأنطاكيّ في دير سيّدة النجـاة. وفـي ٢٣ أيـار (مـايو) ١٧٨٧ منـح البابا بيوس السادس البطريرك مـ ائيل جروه البراءة الرسولية.

إسـتقرّ البطريـرك السـريانيّ ـاثوليكيّ فـي كرسـيّه الجديـد علـى شـرفة درعـون من كسروان لبنان، وراحِ يراسل الأبرشيّات ويطلب شـبّانًا ممتـازين بـالتقوى والذكـاء، ميّـالين إلـى الـروح الكهنوتـيّ، وقـد لبّـى الدعـوة فريـق مـن هـؤلاء حضـر إلــى ديـر الشـرفة، وراح أعضـاؤه يقتبسـون الفضيلـة والعلـم حتّـى ارتقـوا إلـى رتبـة الكهنـوت. وفـي عـام ١٧٨٩ بـدأ البطريـرك يبعـث الشـبّان إلـى رومـا ليكملـوا علومهـم. وهكـذا دبّت الحياة فـي الكنيسـة السـريانيّة الكاثوليكيّـة علـى يـد هـذا البطريـرك القديـر، الـذي جـاهد جهـاد الأبطـال فـي سـبيل رسـالته. وفـي وقـائع لجوئـه إلـى هـذه المنطقـة مـن الشـرق نمـوذج معبّـر جـدًّا مـن تلـك الوقـائع المماثلـة التـي جعلـت لبنـان وجبلـه ملجـأ للأقليّـات المضطهـدة. ومثـل كثـير مـن الأديـار، العـائدة لمختلـف الكنـائس المسـيحيّة، انطلق دير الشرفة في رسالته الإكليريكيّة، وكان مـن أوائـل أسـاتذة مدرسـته المطـران إيونيوس نعمـة اللـه الصـدّي، رفيـق البطريـرك، والمطـران أثناسـيوس موسـى صبّـاغ الروميّ الملكيّ.

ويحفـظ رؤسـاء هـذه الكنيسـة الجميـل للدولـة الإسـبانيّة لأنّهـا فــي أحـرج الظـروف سـاعدت المؤسّـس، بـدءًا مـن ملكهـا وملكتهـا، وصـولاً إلـى وزرائهـا وسـادتها وسيّداتها. وفـي أرشـيف ديـر الشـرفة مـن الوثـائق والصكـوك مـا يفيـد عـن العـون الكبـير الـذي قدّمـه الإسـبان لهـذا الديـر ومعهـده، وأخـصّ هـؤلاء الدوقـة دي هيرموزا التـي أسـعفت البطريـرك بمبـالغ طائلـة لتعزيـز الديـر ومعهـده. ويُعَـدّ ديـر

الشرفة اليوم من أكبر أديار لبنان حيث لا يزال يشهد لحقيقة كون هذا الجبل موئلاً للمضطهدين[١].

ويذكر مؤرّخو الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة أنّ دير الشرفة راح يزخر بالرهبان والتلاميذ يتثقّفون فيه بالعلوم والفضائل الكهنوتيّة وينطلقون إلى الرسالة في جميع بلدات وقرى سورية وما بين النهرَين وتركيا. وقد حافظ السريان الكاثوليك على كرسيّهم البطريركيّ في ماردين بالرغم من أنّ بعضًا منهم جلس في حلب والموصل أو في دير الشرفة. ونلاحظ أنّ للسريان المونوفيزيّين كنيسة حديثة نسبيًّا في ماردين[٢] على اسم مار بطرس أُنشئت سنة ١٨٨٥ وجُددت سنة ١٩١٥، ولهم كنيسة في حيّ الشمسيّة بماردين على اسم مريم الطاهرة أُنشئت سنة ١٨٨٧. أمّا السريان الكاثوليك فكانوا قد تفرّدوا بكنيسة القدّيسة شموني ثمّ قضوا مدّة في كنيسة الأربعين. فحدث من جرّاء ذلك شغب وفتن، فرأى بطاركتهم أن يشيّدوا لجماعتهم كنائس حديثة منعًا للمشاحنات، فأنشأ البطريرك أنطون سمحيري في ماردين كنيسة على اسم العذراء سنة ١٨٦٠، كما بنى البطريرك جرجس شلحت ديرًا

---

١ ـ مفرّج طوني، الموسوعة اللبنانية المصوّرة، الجزء الثالث مكتبة البستان (بيروت،١٩٧١) ص١٠٢ ـ ١٠٥، تحقيق مصادرُه: الدويهي البطريرك إسطفانوس، بطاركة الطائفة المارونيّة، المطبعة الكاثوليكيّة (بيروت، ١٩٠٢)؛ الحتّوني الخوراسقف منصور، المقاطعة الكسروانيّة (لا.ت.)؛ داغر الخور اسقف يوسف، بطاركة الموارنة، المطبعة الكاثوليكيّة (بيروت، ١٩٨٥)؛ أرملة الخوري إسحق السريانيّ، تاريخ سيّدة النجاة أي دير الشرفة ١٧٨٦ ـ ١٩٤٦، مطبعة الآباء اللبنانيّين (جونيه – لبنان ١٩٤٦).

٢ يذكر الأب إسحق أرملة في كتابه "القصارى في نكبات النصارى" ص ٣٤، أنّ عدد السريان عمومًا في ماردين كان يبلغ عشرة آلاف نسمة أغلبهم من جماعة السريان القديم (المونوفيزيّين) ولسبب اتّحاد السريان الكاثوليك مع الأرمن بمسألة الدين صوّب أعداء النصرانيّة نحوهم الغضب والحرد ونكّلوهم أشدّ التنكيل وفتكوا بوجهائهم، وزد أنّ الفقر ضرب أطنابه على معظمهم والتهم الجوع والوباء قسطًا صالحًا منهم.

فخمًا على اسم مار افرام سنة ١٨٨٤، وأقاموا كنيسة على اسم مار آسيا في شرقيّ البلاد [1].

على الصعيد البطريركيّ، ثبّت الحبر الأعظم في سنة ١٨٣٨ انتخاب البطريرك بطرس جروه [2]، فكانت بطريركيّته الطويلة مزيج أفراح وأحزان متواصلة. وفي سنة ١٨٣٠ نقل هذا البطريرك مقرّ الكرسيّ من دير الشرفة إلى حلب، وأقام بها. وفي سنة ١٨٤٥ تحرّرت الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة من تبعة البطريرك المونوفيزيّ تمامًا، فاهتمّ البطريرك بطرس جروه بجمع شمل أبنائه وتنظيم كنيسته وإعادة الحياة إليها. وكان جميع سريان حلب قد اعتنقوا المذهب الكاثوليكيّ، وانضمّوا إلى كنيسته، فكانت الكاتدرائيّة السريانيّة الجميلة تحت تصرّفه، وجدّد افتتاح دير الشرفة، واشترى في حلب خمسة أبنية. ونقل إلى هذه المدينة كلّ ما كان في دير الشرفة من أوان مقدّسة وملابس كهنوتيّة ومخطوطات ثمينة. إلاّ أنّ الأتراك قد انقضّوا عليها سنة ١٨٥٠ وأحرقوها، وضربوا البطريرك ضربًا فادحًا، فمات بعد هذه الأحداث الأليمة بمدّة وجيزة سنة ١٨٥١، وقد امتلأت نفسه كآبة ومرارة.

وكان البطريرك بطرس جروه عالمًا كبيرًا، وخطيبًا مفوّهًا، وكاتبًا بارعًا، وقد طبع عدّة مقالات دينيّة نقل بعضها عن الإيطاليّة. وأدخل في الطقس

---

١ ـ أرملة، القصارى في نكبات النصارى، ص ٣٢ ـ ٣٣.

٢ ـ سلسل الأب إسحق أرملة في كتابه "القصارى في نكبات النصارى" ص ٣٣، البطاركة السريان الكاثوليك على الشكل التالي: خلف السيّد أندراوس أخيجان السيّد غناطيوس بطرس شهبادين (ت١٧٠١) ثمّ توّج السيّد غناطيوس ميخائيل جروه (ت١٨٠٠) بطريركًا أنطاكيًا في دير الزعفران على عامّة السريان، وخلفه السيّد غناطيوس ميخائيل ضاهر (ت ١٨١٧)، فالسيّد غناطيوس سمعان زوره (ت١٨٣٨)، فالسيّد غناطيوس بطرس جروه (ت١٨٥١)، فالسيّد غناطيوس أنطون سمحيري (ت١٨٦٤)، فالسيّد غناطيوس فيلبّس عركوس (ت١٨٧٤)، فالبطريرك غناطيوس جرجس شلحت (ت١٨٩١)، فالبطريرك غناطيوس بهنام بنّي (ت١٨٩٧)، فالبطريرك غناطيوس أفرام رحماني عام ١٨٩٨ الذي أقام السيّد ثوفيلس جبرائيل تبوني نائبًا عامًّا للطائفة على ماردين وتوابعها.

الكنسيّ عادة التقديس بمواجهة الشعب يوم خميس الأسرار، واستبدل الحساب الغريغوريّ بالحساب اليوليّ في ٢ حزيران (يونيو) ١٨٣٦ [١].

بعد وفاة البطريرك بطرس جروه بثلاث سنوات، خلفه على الكرسيّ السريانيّ الكاثوليكيّ الأنطاكيّ البطريرك أنطون سمحيري (١٨٥٤ ــ ١٨٦٤). كان هذا البطريرك أسقفًا سريانيًا مونوفيزيًّا، ثمّ مفريانًا شديد التمسّك بمعتقدات كنيسته وتعاليمها. إلى أن عثر يومًا في مكتبة دير الزعفران المونوفيزيّة على نصوص شهادات الإيمان التي كتبها بعض البطاركة السابقين، فقرأها بإمعان نظر، فإذا هي تؤكّد بصراحة على صحّة المذهب الكاثوليكيّ، ما جعله ينطلق إلى ديار بكر، ليعرض على البطريرك جرجس الخامس السريانيّ المونوفيزيّ أن ينضمّ هو وأبناء كنيسته جميعًا إلى الكنيسة الرومانيّة. فاعترف البطريرك بصحّة التعليم الكاثوليكيّ، ولكنّه رفض الاتّحاد بالكنيسة الرومانيّة إلى أن تتهيّأ الفرص المؤاتية. وغادر المطران أنطون مدينة ديار بكر منتقلاً إلى ماردين، حيث راح يبشّر الناس بالمعتقد الكاثوليكيّ. وفي ١٧ نيسان (إبريل) ١٨٢٧ صرّح في ماردين بإيمانه الكاثوليكيّ أمام مطران طائفة الأرمن الكاثوليك يواكيم طازبازيان، واتّحد بالكنيسة الرومانيّة اتّحادًا رسميًا [٢].

لاقى المطران أنطون سمحيري عذابًا شديدًا في عهد البطريركَين المونوفيزيَّين جرجس الخامس سيّار وإيليّا الثاني عنكز. ولمّا أطلّ عام ١٨٤٧ عاد السلام إلى الطائفة السريانيّة الكاثوليكيّة، فشعر بشيء من الهدوء والسكينة. ولمّا توفّي البطريرك

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٤.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

بطرس جروه سنة ١٨٥١، توجّهت الأبصار إلى المطران أنطون. فعقد الأساقفة السريان الكاثوليك في دير الشرفة مجمعًا، وانتخبوه بطريركًا في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٣. وإثر انتخابه، نقل البطريرك الجديد مقرّ بطريركيّته من حلب إلى ماردين، حيث بنى كاتدرائيّة. ثمّ سافر إلى أوروبّا ليجمع التبرّعات ويرمّم الخراب الذي حدث سنة ١٨٥٠. وقابل في أثناء رحلته بعض ملوكها، وأضحى عرّابًا للأمير لويس بن نابوليون الثالث. وقد جمع خلال رحلته إلى أوروبّا أموالاً طائلة، وأتى لكنيسته بملابس ثمينة قبل أن يوافيه الأجل في ١٦ حزيران (يونيو) ١٨٦٤، بعد أن قضى حياة مليئة بالجهاد في سبيل المعتقد المسيحيّ[١].

خلف البطريرك أنطون سمحيري على الكرسيّ السريانيّ الأنطاكيّ الكاثوليكيّ البطرير فيلبّس عرقوس (١٨٦٤ ـ ١٨٧٤)، الذي دافع عن امتيازات الكنيسة الشرقيّة في المجمع الفاتيكانيّ الأول (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠) وانضمّ إلى الأقليّة لتحديد عصمة البابا. وانتُخب بعده البطريرك الشهير جرجس شلحت (١٨٧٤ ـ ١٨٩٢)، وهو من مواليد حلب، وكان أسقفها ١٨٦٤ ـ ١٨٧٤ قبل ارتقائه السدّة البطريركيّة، وقد ترك في حلب آثارًا كبيرة من أعماله. وفي عهده انضمّ إلى كنيسته ثلاثة أساقفة وثمانية آلاف نسمة. وأسّس سنة ١٨٨٤ بقرب ماردين جمعيّة رهبانيّة غايتها التبشير في القرى المجاورة. وقد قام أفرادها بأعمال جليلة، لكنّ الجمعيّة اضمحلّت إثر النكبة التي حلّت بالمسيحيّين في تلك المنطقة إبّان الحرب العالميّة الأولى (١٩١٥). واهتمّ شلحت بتنظيم شؤون كنيسته اهتمامًا ملحوظًا، فترأس سنة ١٨٨٨ مجمع الشرفة الذي كان له الفضل الأعظم

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

في ترتيب الأمور الكنسيّة. ولا تزال الكنيسة السريانيّة حتّى اليوم تتبع ترتيبات ذلك المجمع. وبنى البطريرك شلحت معبد دير الشرفة، إلى أن توفّى الله هذا البطريرك الجليل في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢. وقد اشتهر في عهده المطران قليمُس داوود أسقف دمشق (١٨٧٩ ـ ١٨٩٠) الذي عهد إليه البطريرك شلحت ضبط كتب الصلوات القانونيّة في ستّة مجلّدات، وقد اعتُبر هذا الأسقف من كبار علماء عصره، اشترك في اللجنة التحضيريّة للمجمع الفاتيكانيّ الأول يوم كان كاهنًا، وبرع في كلّ فنّ وكان جوابه دائمًا حاضرًا على أيّ مسألة، وقد قيل عنه "إنّه سند العلوم الشرقيّة واللغات السامية والفنون الطقسيّة كافّة[1]".

بعد البطريرك شلحت نُصّب بهنام بنّي بطريركًا على الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة الأنطاكيّة في ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٣. وكان من قبل مطرانًا على الموصل منذ ١٨٦٢، حضر أسقفًا المجمع الفاتيكانيّ الأول، وألقى في جلساته عدّة خطابات أظهر فيها ميله إلى تحديد عصمة البابا، ولمّا أصبح بطريركًا لبّى دعوة البابا لاون الثالث عشر، فسافر إلى روما سنة ١٨٩٤ وانضمّ إلى سائر بطاركة الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، واشترك وإيّاهم في المحادثات الدينيّة التي أجروها مع الحبر الأعظم في ما يتعلّق بأوضاع الكنائس الشرقيّة والامتيازات البطريركيّة.

توفّي البطريرك بهنام سنة ١٨٩٧. ووُصف بأنّه كان رجلاً كريمًا عالمًا صاحب ثقافة واسعة وذكاء حادّ، ومعارف غزيرة، اهتمّ في حياته بتربية الإكليروس، فعهد إلى الرهبان الانتقاليّين Les Assomptionnistes إدارة مدرسة دير الشرفة الإكليريكيّة،

---

١ ـ المرجع السابق.

فخدمت هذه المدرسة الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة خدمات جلّى، وقدّمت لها كهنة مثاليّين في الغيرة والنشاط والتضحية[1].

خلف البطريرك بهنام البطريرك غناطيوس افرام الثاني رحماني (١٨٩٨ ـ ١٩٢٩) الذي كان أوّلاً نائبًا بطريركيًّا في القسطنطينيّة، ثمّ رئيس أساقفة بغداد، فرئيس أساقفة حلب ١٨٩٣، وانتُخب بطريركًا لكنيسة السريان الكاثوليك في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٨. وكان البطريرك رحماني صاحب فضيلة سامية وعلم زاخر، فجلب بغيرته الرسوليّة كثيرًا من السريان الأرثذوكس إلى المذهب الكاثوليكيّ، ونشر عدّة مؤلّفات دينيّة وتاريخيّة، لها قيمة علميّة رفيعة. واهتمّ هو الآخر بتربية المرشّحين إلى الحياة الكهنوتيّة، فعهد سنة ١٩٠٢ إلى الرهبان البندكتيّين تأسيس مدرسة إكليريكيّة للسريان الكاثوليك على جبل الزيتون في القدس. وأسّس جمعيّتَين رهبانيّتَين نسائيّتَين، الأولى في حريصا بلبنان والثانية في ماردين. فاستُشهدت راهبات ماردين سنة ١٩١٤ إبّان الحرب العالميّة الأولى، وانضمّت راهبات حريصا إلى راهبات الورديّة التابعات للبطريركيّة اللاتينيّة في القدس. وقد جعل البطريرك غناطيوس مركزه في بيروت بتفويض من الحبر الأعظم، وتوفّي سنة ١٩٢٩[2]. وحاول البطريرك غناطيوس افرام الثاني رحماني نقل الكرسيّ البطريركيّ من ماردين نهائيًّا إلى لبنان، إلاّ أنّ البطريرك الكردينال جبرائيل تبّوني هو الذي سيركّز أخيرًا الكرسيّ البطريركيّ في بيروت منذ سنة ١٩٣٠[3].

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ المرجع السابق.

٣ ـ الجميل المطران ميخائيل، كنيسة السريان الكاثوليك، مرجع سابق، ص١٣٤ ـ ١٣٥.

فقد خلف البطريرك غناطيوس افرام الثاني رحماني بعد وفاته البطريرك جبرائيل تبّوني المولود في الموصل سنة ١٨٧٩، دخل، وهو في الثالثة عشرة من عمره، مدرسة الآباء الدومينيكان في المدينة نفسها. وتلقّن فيها العلوم الكهنوتيّة، وسيم كاهنًا سنة ١٩٠٢، رُقّي إلى الدرجة الأسقفيّة سنة ١٩١٣، فتولّى شؤون النيابة البطريركيّة في ماردين. وفي أثناء الحرب العالميّة الأولى، تجلّت محبّته لرعيّته بأروع مظاهرها، فدافع عنها دفاع الأبطال. وفي سنة ١٩١٩ عُيّن نائبًا بطريركيًّا على أبرشيّة حلب، ثمّ أسقفًا لها. وفي ٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٢٩ عقد أساقفة الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة مجمعًا في دير الشرفة، وانتخبوه بطريركًا. رقّاه الحبر الأعظم البابا بيوس الحادي عشر إلى رتبة كردينال الكنيسة الرومانيّة سنة ١٩٣٥. وقد اشترك البطريرك تبّوني في أعمال المجمع الفاتيكانيّ الثاني. توفّي في بيروت في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨. فانتُخب خلفًا له مطران حلب مار ديونوسيُس أنطون حايك، وهو من مواليد حلب عام ١٩١٠، أصبح أسقفًا على حلب في ١٥ آب (أغسطس) ١٩٥٩، وبطريركًا في ١٠ آذار (مارس) ١٩٦٨. وقد جدّد دير الشرفة، وأحيا الرهبانيّة الإفراميّة النسائيّة. وله عدّة مؤلّفات تاريخيّة[1].

إنتشرت الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة انتشارًا سريعًا وتقدّمت في العلوم والفكر والروح ونظّمت أحوالها وعقدت مجامع عدّة أشهرها مجمع الشرفة عام ١٨٨٨ الذي نظّم الشرع الخاصّ بها. ولهذه الكنيسة اليوم أبرشيّات ونيابات بطريركيّة في لبنان وسورية والعراق ومصر وفلسطين وتركيا، ولها إرساليّات ورعايا في باريس والسويد ونيوجيرسي ومونتريال وفنزويلا والبرازيل وسيدني وديترويت وجاكسون فيل —

---

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٧.

فلوريدا ولوس أنجلوس. ولها نشاطات ومؤسّسات عديدة منها: إكليريكيّـا دير الشرفة والراهبات الإفراميّات في درعون، وميتم بيت الفتاة، وجمعيّات خيريّة، ومجالس استشاريّة ورعويّة، وأندية رياضيّة، ومستوصفات مجانيّة، ومركز للبحوث والدراسات السريانيّة، ومكتبة مخطوطات ثمينة وأخرى للمطبوعات، وأربع مدارس، وخمسة أديرة[1].

السّريَانُ الكَاثُوليك

اليَـــــــــوم

وفي النهاية، نلاحظ أنّ تاريخ كنيسة السريان الكاثوليك قد مرّ في ثلاث مراحل: الأولى، كان فيها للبطريرك السريانيّ لقب "بطريرك حلب" وقد امتدّت من سنة ١٦٦٢ إلى سنة ١٧٠٢؛ الثانية، كان فيها الكرسيّ البطريركيّ شاغرًا، وكان يسوس الطائفة النوّاب البطريركيّون، وقد امتدّت من سنة ١٧٠٢ إلى سنة ١٧٨٣؛ وفي الثالثة، أُعيدت البطريركيّة السريانيّة إلى الوجود في قلب البطريركيّة الأنطاكيّة، وقد اتّخذت لها مقرًّا في مدن مختلفة، كان آخرها لبنان.

بينما ذكرت مراجع أنّ عدد السريان الكاثوليك اليوم في العالم يناهز نصف مليون نسمة، ذكرت دراسات أخرى أنّ عدد المقيمين منهم في البلدان العربيّة، يبلغ اليوم نحو ٥٥ ألف نسمة، أكثرهم في سورية ولبنان[2]. وأكّد

---

١ ـ المرجع السابق، ص ١٣٥.

٢ ـ ابراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربيّة (بيروت، ١٩٨٨)؛ السمّاك محمّد، الأقليّات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٠) ص٢٤.

باحثون[1] على أنّ الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة تضمّ حوالى ١٠٠ ألف نسمة، يسكنون في العراق وسورية ولبنان ومصر، وما يقارب ١٥ ألف نسمة في المهجر. ويتوزّع القاطنون منهم في الشرق على: الأبرشيّة البطريركيّة، وأبرشيّات الموصل وحلب ودمشق وبغداد وحمص وحماه والجزيرة والفرات؛ وثلاث نيابات بطريركيّة في القدس ولبنان ومصر[2]. أمّا في بلدان الاغتراب فيسوس أبناء هذه الكنيسة كهنة في اثنتَي عشرة إرساليّة بدأ تأسيسها رسميًّا منذ عام ١٩٧٦، وهي مرشّحة للزيادة كلّما تمّ للقيّمين على مقدّرات الكنيسة اكتشاف مواقع أبنائها المشتّتين. وقد انقرض أثناء الحرب العالميّة الأولى معظم نصارى نواحي ماردين وأورفا وديار بكر، فقُتل أبناؤها وأساقفتها وكهنتها. وللسريان الكاثوليك رهبانيّة نسائيّة تُعرف راهباتها بالإفراميّات؛ وللكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة أكثر من ٥٠ مدرسة، فيها حوالي ٩ آلاف طالب وطالبة[3].

---

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٨.

٢ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٨؛ حدّدت مراجع أخرى أبرشيّات الكنيسة السريانيّة الكاثوليكيّة بثماني أبرشيّات (بيروت، دمشق، حمص وحماة والنبك، حلب، نصيبين والحسكة، الموصل، بغداد، والقاهرة) وثلاث نيابات بطريركيّة (البصرة - العراق، القدس، اسطنبول).

٣ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٤٨.

الفَصلُ الرَّابع

الكَنِيسَتَان الأشُورِيَّة والكَلدانِيَّة

الكَنِيسَتَان الأشُورِيَة والكَلدانِيَة؛ إنتشارُ الكَنِيسَة السّريانِيَة الشَرقِيَة؛

إشعاعٌ فكرِيّ؛ الأديارُ والرّهبانِيّات؛

فِي ظلّ بدايَة الإسلام؛ الإنتكاسات الخَطيرَة؛

إمتِنَاع الكَنِيسة السّريانِيَة الشَرقِيَة فِي بِلادِ أشُور؛ مِن مآثِر التُرك؛ أشُورِيّون وكَلدان؛

كَنِيسَة الكَلدان فِي العُهودِ الأخِيرة؛ كنِيسَة الشرق الأشُورِيَة فِي العُهودِ الأخِيرَة.

الكِنيسَتان الأشُورِيّة والكَلدانِيّة

أُسّس الفرع الشرقيّ للكنيسة السريانيّة، أو الكنيسة المشرقيّة كما يدعوها أتباعها تفاخرًا، عند منصرم القرن الثاني للميلاد. ولكنّ هذه الكنيسة تعتبر أنّها، بتعاليمها وطقوسها وتقاليدها، تعود إلى عهد أقدم بكثير، أي إلى عهد الملك أبجر ملك إيدسا أو الرها، الذي كان معاصرًا للسيّد المسيح. وتقول الرواية إنّ هذا الملك، أبجر الأسود، بعث برسالة إلى السيّد المسيح يدعوه فيها إلى زيارة إيدسا، ليشفيه من داء النقرس الذي كان مصابًا به. غير أنّ السيّد المسيح وعده بأنّه سيرسل إليه رسولاً بعد صعوده إلى السماء. وفي رسالة السيّد المسيح له يقول "إنّك ستشفى لأنّك آمنت بي ولم ترني[1]".

ويعتبر أكثر مؤرّخي الكنيسة أنّ الرسول الذي انطلق إلى الرها ليشفي ملكها أبجر الخامس المعروف أيضًا باسم "كاما الأسود" هو تدّاوس المعروف أيضًا باسم أدّاي. وأنّه هو الذي بشّر بالمسيحيّة في الرها، وواصل الرسالة تلميذه "أجَي" الذي استُشهد

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، ص٣٠٨، عن: الأنطاكيّ يحيى ابن سعيد، في ابن البطريق، ٢: ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

في الرها. ومن تلاميذ أدّاي أيضًا "ماري" الذي مدّ تبشيره إلى المدائن، وقد ورد ذكر لأعماله في سير الشهداء القدّيسين[1]، وفي "مجدل" ماري بن سليمان دلائل تشير إلى مجيئه إلى المدائن في نحو نهاية القرن الأوّل[2]، واستطاع أن ينال حظوة لدى أمير طيسفون الذي وهب له فيها قطعة أرض في منطقة كوخي (الأكواخ) في ضاحية المدينة فأسّس فيها الكنيسة الأولى. ومن هناك ذهب إلى مناطق أخرى للتبشير، ثمّ حطّ رحاله في "دور قنّى" حيث تُوفّي ودُفن.

هذه الكنيسة، تُعتبر الفرع الشرقيّ للكنيسة السريانيّة، وهي التي جمعت بين لاهوت المسيح وناسوته، واستنكرت تأليه السيّدة العذراء، والتي نُسبت في وقت متأخّر عن تاريخ نشوئها إلى الراهب نسطوريُس[3] (حوالى ٣٨٠ ــ ٤٥١) بطريرك القسطنطينيّة (٤٢٨ ــ ٤٣١) فعُرفت بالنسطوريّة، أو كنيسة الشرق أو المشرق.

وبما أنّ هذا المعتقد يخالف المعتقد الأرثوذكسيّ، أي المعتقد القديم الذي تقول به الكنيسة أصلاً، وفحواه أنّه بالرغم من أنّه في المسيح طبيعتَين، لاهوتيّة وناسوتيّة، فإنّ هاتَين الطبيعتَين اتّحدتا في شخص واحد، فقد نبذ مجمع أفسس سنة ٤٣١ تعاليم

---

١ ـ أبونا الأب ألبير أستاذ التاريخ الكنسيّ، الكنيسة الكلدانيّة السريانيّة الشرقيّة الكاثوليكيّة، في كتاب: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، دار المشرق (بيروت،١٩٩٧) ٢: ٢٠٦، عن: بيجان، سير الشهداء والقدّيسين (باريس،١٨٩٠) ١: ٤٥ ـ ٩٤، وكتاب: شير إدي، شهداء المشرق، ١: ١٤ ـ ٤٠.

٢ ـ بن سليمان ماري، أخبار بطاركة كرسيّ المشرق (المجدل)، تحقيق جيسموندي (روما،١٨٩٩) ص٣.

٣ ـ تختلف المراجع في أصول نسطوريُس، إذ يجعله بعضها صقليًا وبعضها الآخر فيليقيًا، وتعتبر الكنيسة الشرقيّة نسطور أو نسطوريُس من آباء الكنيسة اليونانيّة لا من الآباء السريان.

نسطوريُس نبذًا قاطعًا ولعن نسطوريُس الذي قضى بقيّة حياته منفيًّا في الواحات الخارجة غرب طيبة[1].

إنتشارُ الكَنِيسَةَ السّرِيَانِيَّةَ الشّرقِيَّة

رغم ذلك القطع والتحريم من قِبَل المجمع، فقد قدم إلى أفسس بعد قليل من صدور المقرّرات العديد من أنصار نسطوريُس وغيرهم من الأساقفة الذين لا يحبّذون إجراءات الأنبا كيرلّس بطريرك الإسكندريّة (٤١٢ ـ ٤٤٤)، وهو معلّم الكنيسة الذي ترأس مجمع أفسس وصحب إليه خمسين من الأساقفة المصريّين المؤيّدين له وكثيرًا من الهدايا، وهو من آباء الكنيسة القدّيسين رغم ما صدر عنه من تصرّفات تنمّ عن ضعف بشريّ بحسب بعض المؤرّخين الكنسيّين[2]. ويبدو أنّه بعد ذلك التحريم مباشرة قد انضمّ أتباع وأشياع عديدون إلى المعتقد النسطوريّ في سورية، وما لبثت الكنيسة السريانيّة الشرقيّة أن حقّقت للمسيحيّة انتشارًا واسعًا في ديار الأتراك والمغول والتيبت والصين واليابان والهند وسيلان وجنوب آسيا في أندونيسيا. فكانت، بحسب العديد من الباحثين، العامل الأقوى في الحضارة السوريّة التي طبعت الشرق الأدنى بطابعها، من مصر حتّى بلاد فارس. فإنّ جماعة من أبناء هذه الطائفة كان قد أقبل أعضاؤها بدءًا من القرن الرابع على درس كتب الفلسفة اليونانيّة، وعملوا على نقلها إلى لسانهم

---

١ ـ كُمبي الأب جان، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ط٢، دار المشرق (بيروت،٢٠٠٢) ص١٢٦.

٢ ـ المرجع السابق.

السريانيّ، وعلى بثّها في سورية والعراق. ثمّ أخذت هذه الكنيسة في الانتشار شرقًا من الرها حتّى تسرّبت إلى فارس. وفي أواخر القرن الخامس عمد أسقف العاصمة الساسانيّة ـ مدائن كسرى ـ إلى تنصيب نفسه بطريركًا على الكنيسة الشرقيّة. وكانت المسيحيّة قد عاشت قرنيها الأولَين هناك تحت حكم الملوك الفرثيّين، من الأشغانيّين و شاقيّين، في جوّ من التسامح، دون أن تتعرّض للاضطهاد العنيف المنظّم، وقد استفادت من ذلك لتوطيد كيانها وتنظيم شؤونها الدينيّة وإنشاء عدد من المراكز الكنسيّة في طول البلاد وعرضها. وقد فوجئ الساسانيّون في بدء عهدهم سنة ٢٢٤ بانتشار المسيحيّة الواسع في البلاد التي سيطروا عليها.

عامل أردشير الأول، مؤسس السلالة الساسانيّة، المسيحيّين بكثير من الرفق والتسامح، أمّا خلفه شابور الأول (٢٤١ ـ ٢٧٢) فقد انقلب تسامحه الأول إلى شيء من الحذر تجاه هذه الديانة الجديدة التي كانت تهدّد بتقويض كيان الديانة المزديّة، فأبدى شيئًا من الصرامة تجاه المسيحيّين، متأثّرًا في ذلك بضغط رؤساء الدين المزدي. ولكنّه أسهم، من حيث لا يدري، في نشر المسيحيّة في بلاده. فإنّ المسبيّين الذين جلبهم من منطقة الروم إلى الشرق، وكان من بينهم ديميتريانُس أسقف أنطاكية البيزنطيّ، والأمبراطور فاليريانُس نفسه، وأسكنهم في منطقة الأهواز، كان معظمهم من المسيحيّين، ولم يتخلّوا عن ديانتهم في الغربة، بل عاشوها بحريّة ودعموا المسيحيّين من أهل البلاد. وكانت جماعات مسيحيّة أخرى قد نزحت منذ القرن الثاني من المنطقة الغربيّة إلى الشرق، هربًا من وطأة الاضطهاد، منهم الأسقف "تقريطي" الذي حلّ في منطقة "كرخ سلوخ" وهي كركوك الحاليّة. وبالإمكان القول إنّ المسيحيّة في القرن الثالث عاشت في ظلّ الملوك الساسانيّين في جوّ من التسامح والتغاضي، وإن تعرّضت

أحيانًا لبعض المضايقات الناجمة عن تزمّت الكهّان المزديّين[1]. وقد اختصر باحثون محدثون في شؤون الكنائس الشرقيّة أنّ الكنيسة النسطوريّة قد عاشت في ظلّ الملوك الفرس تارة في هدوء وسلام، وطورًا في اضطراب واضطهاد[2].

وعلى العموم، كان للكنيسة السريانيّة الشرقيّة سجلّ من النشاط التبشيريّ منقطع النظير، والمدافن الأثريّة وسواها من الآثار تشهد على وجود كنائس سريانيّة في أماكن عديدة من الشرق، منها حول الحيرة حيث كانت قبائل المناذرة العربيّة المتمركزة هناك قد انضمّت إلى مذهب كنيسة الشرق، في حين انضمّ الغساسنة الساكنون في منطقة بصرى الشام إلى المذهب المونوفيزيّ. أمّا الحيرة، عاصمة المناذرة، فقد أصبحت ملجأ وملاذًا أمينًا لرؤساء كنيسة الشرق إبّان المحن والصعوبات، ومرقد جثمان العديد منهم بعد موتهم. ومن تلك المدافن الأثريّة للسريان الشرقيّين في مرو[3]، وهراة[4]، وسمرقند[5]، وفي أماكن أخرى في آسية الصغرى، يعود تاريخها إلى أواسط القرن السادس. ويذكر مؤرّخون محدثون للكنيسة السريانيّة الشرقيّة أنّ تلك الكنيسة كانت قد وسّعت نطاق تبشيرها نحو الجنوب الغربيّ ووصلت إلى قلب الجزيرة العربيّة، وانتشرت في اليمن ونجران ومكّة وغيرها من المراكز الهامّة في الحجاز، وتجاوزتها إلى عدن وجزيرة سمطرى وعمّان. وقد استفاد

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٠٨.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٥٧.

٣ ـ مرو: مدينة في تركمانستان التي كانت تؤلّف إحدى جمهوريّات الإتّحاد السوفياتيّ، تُعرف اليوم بـ "ماري"، فتحها العرب سنة ٦٥١.

٤ ـ هراة: مدينة في شمال غربيّ أفغانستان، بناؤها منسوب إلى الإسكندر.

٥ ـ سمرقند: مدينة في اوزبكستان التي كانت تؤلّف إحدى جمهوريّات الإتّحاد السوفياتيّ، خربها جنزيزخان سنة ١٢٢٩ ثمّ استولى عليها تيمورلنك وجعلها عاصمته وفيها قبره.

المرسَلون الشرقيّون من القوافل التجاريّة المتّجهة إلى تلك المناطق لينقلوا إليها أفكارهم الدينيّة. وقد استخدموا هذه الطريقة ذاتها في الذهاب إلى بلدان إيران الشرقيّة وإلى الهند حيث وجدوا بقايا من المسيحيّين الذين استمرّوا على ديانتهم منذ عهد توما الرسول[1]. وذكر باحثون أنّه في حوالى أواسط القرن السادس، تسلّلت جنوبًا إلى الهند إرساليّات تابعة لهذه الحركة التي عُرفت اصطلاحًا بـ "الحركة البروتستانتيّة الشرقيّة"، حيث كانت المسيحيّة قد توثّقت قبل ذلك بقرنَين، فنشأت على ساحل الهند الغربيّ كنائس سريانيّة، لا سيّما في ملبار وسيلان. ولقد عُرف أتباع الطقس السريانيّ في الهند بـ "نصارى القدّيس توما" تبعًا لأخبار لا يعوّل عليها، جعلت من توما (الرسول) المعلّم الأوّل للمسيحيّة في الهند[2]. ويعتبر باحثون متعمّقون في دراسة الكنيسة السريانيّة الشرقيّة أنّ بوسعهم القول إنّ حدود كنيسة المشرق كانت تمتدّ في النصف الأوّل من القرن السابع من سواحل البحر الأحمر حتّى بلدان الصين واليابان[3].

وكان للكنيسة السريانيّة الشرقيّة نشاط بارز على الصعد الفكريّة واللاهوتيّة والعلميّة منذ بداياتها. وكانت مدرسة الرها التي أسّسها القديس افرام الملفان سنة ٣٦٣ إثر نزوحه من نصّيبين عند استيلاء الفرس عليها، قد انحطّت بنتيجة الصراعات الفكريّة بداخلها في خضمّ الانشقاقات، فنزح عدد من كبار أساتذتها إلى المنطقة الشرقيّة، لا سيّما "برصوما" والملفان "ترساي". وقد توصّل برصوما إلى أن يقام

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢١٦.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ١٣٥ ـ ١٣٦.

٣ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢١٦.

مطرانًا لنصّيبين وأفلح مع نرساي في إعادة إنشاء مدرستها التي أصبحت من المراكز العلميّة الكبرى في الشرق السريانيّ. إلاّ أنّ برصوما الطموح قاوم جثالقة المشرق وتسبّب في موت واحد منهم هو "بابويه"، كما أنّه اضطهد دعاة المذهب المونوفيزيّ، لا سيّما في منطقة نينوى، وقتل عددًا منهم بمؤازرة السلطة الفارسيّة الحاكمة. وانفردت كنيسة المشرق في معتقدها النسطوريّ، وسارت نحو الاستقلال عن الكنيسة السريانيّة الغربيّة. وقد كرّس مجمع "باباي" سنة ٤٩٧ إنفصال كنيسة المشرق هذه بصورة رسميّة ونهائيّة، وراحت أدراجَ الرياح جميع المحاولات التي بذلها الأمبراطور زينون في سبيل التوفيق بين مختلف المذاهب، ولم يحظ "موسم الاتّحاد ـ هينوتيكون" الذي أصدره بالقبول في كنيسة المشرق، كما أنّ الفوضى الفكريّة أدّت إلى إغلاق المدرسة سنة ٤٨٩.

إشعَاعٌ فِكرِيّ

وتوضيحًا للنشاط الفكريّ الذي مارسته الكنيسة السريانيّة الشرقيّة، يروي باحثون كنسيّون محدثون أنّه منذ القرن الثاني الميلاديّ، كان قد ظهر في كنيسة المشرق كتّاب وأدباء وشعراء رفدوا اللغة السريانيّة بمفرداتها الأصيلة، وغذّوا الفكرة الدينيّة، وطوّروا التعبير اللاهوتيّ.

ففي نهاية القرن الثاني، برز برديصان (ت٢٢٢) الذي يُعتبر أبا الشعراء السريانيّ، بالرغم من الطابع الغنوصيّ الذي يبدو في كتاباته. أمّا في القرن الرابع، فقد تبلورت الفكرة لدى الجثليق الشهيد مار شمعون برصباغي (ت٣٤١) من خلال

أحاديثه وتراتيله الدينيّة. كما اشتهر يعقوب أفراهاط الملقّب بالحكيم الفارسيّ (ت٣٤٦) بعروضه اللاهوتيّة المسمّاة "البيّنات" التي جاءت مشبَعة باستشهادات من الكتاب المقدّس، وفيها تناول معظم المواضيع الدينيّة. وكفى هذا القرن فخرًا أنّه أنجب الملفان العظيم القديس افرام السريانيّ (ت٣٧٣) الذي يُعدّ من أكبر عمالقة اللاهوت والآداب السريانيّة، فكتب نثرًا ونظمًا، وكتاباته أكثر من أن تُحصى، وإن لم يبقَ منها إلاّ القليل، وما زال اللاهوتيّون يُدهَشون أمام سموّ أفكاره وعمق أبحاثه التي تناولت مختلف ميادين العلوم، التفسيريّة منها واللاهوتيّة والفلسفيّة والأدبيّة، واستطاع أن يغذّي إيمان جيله والأجيال اللاحقة بما علّمه وأنتجه يراعه، وقد أشرف على إدارة مدرسة نصّيبين منذ نشأتها نحو سنة ٣٢٥، وحينما استولى الفرس على هذه المدينة، تركها القدّيس افرام مع أساتذة مدرسته ومعظم طلاّبها، وتوجّهوا إلى الرها حيث استأنف الملفان نشاطه في "مدرسة الفرس" التي أنشأها في الرها وأدارها حتّى وفاته سنة ٣٧٣.

وفي القرن الخامس فرض الملفان نرساي شخصيّته، فبعد أن علّم مدّة طويلة في مدرسة الرها، انتقل إلى نصّيبين وأنشأ هناك مع زميله برصوما النصّيبينيّ مدرسة أصبحت جامعة مرموقة في كنيسة الشرق، وأنتج قلم نرساي العديد من البحوث والمقالات التي يشير ما بقي منها إلى علمه الغزير وتفكيره العميق وتعبيره العذب، وهو الذي استنبط البحر الإثنَي عشري في الشعر السريانيّ. ويُعتبَر باباي الكبير، رئيس دير إيزلا، أكبر لاهوتيّ في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع، وكتابه الشهير "في الاتّحاد" خير دليل على رجاحة عقله وسعة آفاقه وعمق مفاهيمه اللاهوتيّة[١].

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢١٤ ـ ٢١٥.

وكان من مدارس السريان المبكّرة مدرسة "دير قنّى" التي تُنسب إلى مار ماري الذي بشّر المنطقة في نهاية القرن الأوّل. وهناك من ينسب إنشاء هذه المدرسة إلى مار عبدا في نهاية القرن الرابع. على أنّنا نعتقد أنّ مار عبدا قد جدّدها. وكانت تُعتبر لزمن أكبر مدرسة أو كليّة لاهوتيّة في منطقة بغداد. وتخرّج فيها أعظم علماء المسيحيّين، وكان أشراف بغداد يرسلون إليها أولادهم. وسوف تستمرّ هذه المدرسة في العهد العبّاسيّ. وكان من أبرز مدارس السريان المشرقيّين مدرسة نصّيبين التي أسّسها يعقوب أسقف نصّيبين بعيد سنة ٣٢٥، وأدارها القدّيس افرام الملفان إلى سنة ٣٦٣. فأُغلقت على أثر استيلاء الفرس على هذه المدينة. ثمّ استأنفت نشاطها في منتصف القرن الخامس، وواصلت مسيرتها خلال قرون طويلة. وكانت تحتلّ المرتبة الأولى في الشهرة والكفاءة بين مدارس كنيسة المشرق، وتدرّس فيها جميع العلوم المعروفة آنذاك. وازدهرت خاصّة في منتصف القرن السادس حتّى قيل إنّ عدد طلابها أربى على الألف[1].

أمّا مدرسة الرها الشهيرة التي أسّسها القدّيس افرام الملفان سنة ٣٦٣ للمسيحيّين النازحين من نصيبين خاصّة، لذا سُمّيت "مدرسة الفرس"، فقد استمرّ نشاطها طوال قرن وربع القرن، وتخرّج فيها علماء كبار، إلى أن أُغلقت سنة ٤٨٩ إثر الخلافات التي تسرّبت إليها بسبب الجدالات العقائديّة الدائرة آنذاك. وكان من أشهر أساتذتها الملفان نرساي. ومن مدارس السريان المشرقيّين مدرسة جنديسابور التي وضع نواتها شابور الثاني (٣٠٩ - ٣٧٩) إذ دعا الطبيب اليونانيّ تيودوسيُس إلى جنديسابور وعهد إليه في تدريس الطبّ وترجمة الكتب اليونانيّة، وأصبحت المدرسة مركزًا هامًّا للعلوم

---

١ - أبونا، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

بعد أن التجأ إليها عدد من الأطبّاء والفلاسفة اليونان الذين اضطهدهم الروم واستقبلهم كسرى الأوّل أنو شروان (٥٣١ ـ ٥٧٩) وشاد لهم مستشفى ومدرسة للطبّ تهافت إليها الطلاّب من البلاد كلّها. وسوف تشتهر هذه المدرسة في عهد الخلفاء العبّاسيّين الأوائل ويتعاقب على إدارتها آل بختيشوع الذين سوف يزوّدون الدولة العبّاسيّة بخيرة أطبّائها. وبالإضافة إلى هذه المدارس، كان كلّ دير يضمّ مدرسة يتردّد إليها الطلاب من المنطقة القريبة من الدير أو من المناطق البعيدة[١].

ومن أعلام الفكر المسيحيّ الذين أنجبتهم كنيسة أنطاكية، ثيودوريتُس (نحو ٣٩٣ ـ ٤٦٦) أسقف قورش، الكاتب السريانيّ الذي وضع مقالات وتاريخاً للكنيسة، وقاوم المونوفيزيّة في المجمع الخلقيدونيّ، قبل أن يُتّهم بالنسطوريّة وتحرّم مؤلّفاته الكنيسة الخلقيدونيّة سنة ٥٥٣.

الأديَـــــارُ والرّهبَانيّات

ما إن انتشرت الحياة الرهبانيّة في الديار المصريّة[٢]، حتّى اقتبستها بلاد ما بين النهرَين. ثمّ انتشرت الرهبانيّة في هذه البلاد فقوّضت أركان الوثنيّة وأحيت معالم الديانة المسيحيّة[٣]. فكان رجال ونساء يعيشون في البدء حياة رهبانيّة في وسط

---

١ ـ راجع: إسحق رفائيل بابو، مدارس العراق قبل الإسلام (بغداد،١٩٥٥)

٢ ـ راجع الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ أرملة، النصارى في نكبات النصارى، ص ٣٢ ـ ٣٣.

العالم وبين ذويهم، عاكفين على الزهد والصلاة ملتزمين بالمشورات الإنجيليّة. وفي القرن الرابع، انتظمت هذه الحياة وتطوّرت إلى حياة جماعيّة في نطاق أديرة. وسرعان ما انتشرت هذه الأديرة في طول البلاد وعرضها، في سهولها وجبالها. وقام دير "إيزلا الكبير"، الذي أسّسه مار ابراهيم الكشكري الكبير بالقرب من نصيبين في منتصف القرن السادس، بدور ملحوظ في تنظيم الحياة الرهبانيّة في كنيسة المشرق وتحديد صيغتها القانونيّة وأهدافها الحقيقيّة. وأصبح هذا الدير منطلقًا لإنشاء أديرة أخرى عديدة في البلاد منذ مطلع القرن السابع، خصّ منها بالذكر بعض مؤرّخي الكنيسة السريانيّة الشرقيّة المحدثون دير "بيت عايي" في منطقة "العقرة[1]" الذي أسّسه يعقوب اللاشومي، وقد أصبح مركزًا هامًّا للثقافة زوّد كنيسة الشرق بعديد من رؤسائها وأساقفتها ومرسَليها وبخيرة علمائها وأدبائها؛ ودير "الربان هرمزد[2]" بالقرب من "القوش[3]" الذي استمرّت فيه الحياة الرهبانيّة إلى عصرنا الحاضر. ويذكر المؤرّخون أسماء أكثر من عشرين ديرًا في منطقة الحيرة وحدها، في عهود ملوكها اللخميّين والمناذرة[4]. وكانت بغداد ذاتها، قبل تأسيسها عاصمة للعبّاسيّين وبعده، زاخرة

---

١ ـ عقرة: بلدة في العراق، هي اليوم مركز قضاء عقرة في محافظة دهوك، فيها كرسيّ أسقفيّ للكلدان.

٢ ـ ذكر الأب إسحق أرملة في كتابه "القصارى في نكبات النصارى" ص ٣٤ ـ ٤٤ أنّ كنيسة هرمزد الشهيد في ماردين قديمة، بُنيت سنة ٤٣٠ وبقيت في حوزة النساطرة منذ عهد الانفصال حتّى سنة ١٥٥٢.

٣ ـ القوش: بلدة في العراق، مركز قضاء القوش، محافظة نينوى.

٤ ـ اللّخميّون أو المنَاذرة: من قبائل العرب، أصلها من اليمن، أختُ جذام وعاملة، رحل بعضهم إلى شمالي جزيرة العرب وسورية وفلسطين والعراق، أسّسوا الدولة اللخميّة في الحيرة التي عاشت في حروب متواصلة مع الغساسنة الذين اعتنقوا العقيدة المونوفيزيّة، اعتنق اللخميّون المسيحيّة السريانيّة الشرقيّة وتحالفوا مع البلاط الفارسيّ وعملوا على صيانة الحدود، تلاشت دولتهم بعد وفاة النعمان الثالث ٦٠٢، انتقلوا إلى الإسلام بعد الفتح العربيّ، اشتركوا في اليرموك وصفين وحملة يزيد بن معاوية على الحجاز، منهم فروع في لبنان وجبل الدروز على مذهب التوحيد الدرزيّ.

بهذه الأديرة التي اندثرت آثارها اليوم. أمّا الجبال فكانت الموضع المفضّل للحياة الرهبانيّة، فكثرت فيها الأديرة والصوامع والمناسك[1]. وكان كلّ دير يحتوي على مكتبة عامرة بالمخطوطات. ويعكف الرهبان على استنساخ مخطوطات كثيرة. إلاّ أنّ الاضطرابات والحروب التي دارت رحاها في البلاد على تعاقب الأزمان دمّرت الأديرة ومعظم مكتباتها. وقد وصل قسم من هذه المخطوطات إلى مكتبات أوروبّا الشهيرة: لندن وباريس وبرلين والفاتيكان، وغيرها[2].

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢١٥ ـ ٢١٦، مراجعه: المرجي توما، كتاب الرؤساء، ترجمة الأب ألبير أبونا (الموصل،١٩٦٦)؛ البصري أيشو عدناح، الديورة في مملكتَي الفرس والعرب (المعروف بكتاب العفّة خطأ) ترجمة القس (البطريرك) بولس شيخو (الموصل، ١٩٣٩)؛ الشابشتي، كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عوّاد، ط٢ (بغداد،١٩٦٦)؛ غنيمة يوسف رزق الله، الحيرة (بغداد،١٩٣٦)؛ العمري ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا (القاهرة،١٩٢٤)؛ ياقوت، معجم البلدان.

٢ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢١٦.

فِي ظلِّ بدَايَة الإسلام

في بداية الفتح الإسلاميّ، كان النساطرة، هم الآخرون، من الجماعات المسيحيّة التي، منذ مجمع أفسس سنة ٤٣١ الذي نبذ تعاليم نسطوريُس بطريرك القسطنطينيّة، كانت تكنّ شعورًا بالعداء القويّ إزاء بيزنطية. وكان الإطار القوميّ يسبّب بعض الصعوبات لحريّة الكنائس الشرقيّة التي انفصلت عن الأرثذوكسيّة[1]، لذلك كانوا كما المونوفيزيّون، قد استقبلوا العرب المنتصرين استقبال الأصدقاء. وقد أورد بحّاثة معاصر ينتمي إلى الكنيسة السريانيّة الشرقيّة حول هذه المسألة ما نصّه:

> ... بعد أن استقرّت الأمور للإسلام في الجزيرة العربيّة، سعى خلفاء محمّد في نشر ديانتهم الجديدة وفرض سيطرتهم على البلدان المجاورة أوّلا، ثمّ على البلدان البعيدة. وكانت معركة اليرموك الشهيرة سنة ٦٣٦ التي فتحت أمام المسلمين أبواب الأمبراطوريّة البيزنطيّة، ثمّ جاءت معركة القادسيّة سنة ٦٣٧ التي انتصر فيها العرب المسلمون على الفرس، وانفتحت أمامهم أبواب الشرق. وقد رحّب المسيحيّون في البلاد الفارسيّة بالفاتحين الجدد، وذلك لأسباب عديدة، منها لأنّهم كانوا يعانون من كلّ العهود الفارسيّة تقريبًا من الظلم والتعسّف، ثمّ لأنّ لغتهم الآراميّة قريبة من اللغة العربيّة، فكلتاهما من دوحة آراميّة واحدة. والسبب الثالث هو أنّ الإسلام ينادي بدين شبيه بالدين المسيحيّ إلى حدّ ما. وكان للإنسانيّة التي اتّسم بها الإسلام الأوّل تأثير عميق في نفوس الذين دخلوا تحت سلطة المسلمين من رعايا الروم والفرس. وكانت القبائل العربيّة المسيحيّة من المناذرة والغساسنة أشدّ الناس تحمّسًا للفاتحين وتضامنًا معهم في فتوحاتهم الأولى. وكان المسلمون عندما

---

١ ـ كُمبي الأب جان، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، ط٢، دار المشرق (بيروت،٢٠٠٢) ص ٣٥٢.

يفتحون بلدًا، يخيّرون سكّانه بين اعتناق الإسلام والاحتفاظ بدينهم الخاص. فإذا أسلموا، كانوا هم وسائر المسلمين سواء، وإلاّ وجب عليهم دفع الجزية، فيُصبحون "في ذمّة" المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم. وإن لم يقبلوا كلا الأمرَين، فيُحارَبُون ويُقاتَلون[1]. أمّا كنيسة المشرق، فقد واصلت مسيرتها بأمان في بدء الإسلام، دون أن تتعرّض لصعوبات كبيرة. وكانت في هذه الفترة تعاني من مشكلة داخليّة سبّبها "سهدونا[2]" بتعاليمه المخالفة للتعاليم التيودوريّة السائدة في كنيسة المشرق. وحُلّت المشكلة بإقصاء سهدونا عن كرسيّه الأسقفيّ في "ماحوزا داريون" ونبذ تعاليمه. وحينما تولّى "إيشوعياب الثالث الحديابي" (٦٤٩ ـ ٦٥٩) الرئاسة على كنيسة المشرق، لاحظ بكثير من الأسى ما كان الإسلام يحدثه من التأثير في رعاياه المسيحيّين، خاصّة في البلدان الواقعة على السواحل الغربيّة من الخليج العربيّ، مثل البحرين وقطر وعُمان، وحاول البطريرك العظيم أن يحفظ المسيحيّين ثابتين في إيمانهم، ولكن دون جدوى. وإذا لم يُفلح البطريرك مع المسيحيّين الخليجيّين الذين اجتازت أعداد كبيرة منهم إلى الإسلام، طمعًا في الحفاظ على ثرواتهم، فقد أفلح في المناطق الأخرى، لا سيّما في الجزء الشماليّ من ما بين النهرَين. وقد اضطرّ البطريرك في نهاية حياته إلى اللجوء إلى دير "بيت عابي" هربًا من اضطهاد حاكم المدائن. إلاّ أنّ الخدمة الجليلة التي قدّمها هذا البطريرك لكنيسة المشرق، بالإضافة إلى إدارته الحكيمة وطول باعه في الآداب السريانيّة، كانت اهتمامه الكبير بالشؤون الطقسيّة وتنظيمها وإيلائها صيغة شبه نهائيّة ما زالت جارية في كنيسة المشرق في خطوطها العريضة[3].

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢١٧، وجاء هنا في الحاشية: طالع ما قيل في هذا الشأن: تاريخ ميخائيل السرياني، طبعة شابو، ٤ ج، النص السريانيّ والترجمة الفرنسيّة (باريس، ١٨٩٩ ـ ١٩١٠) ط٢، ص٤١٢ ـ ٤١٣؛ يوحنّا بر فنكايي، في منكنا، المصادر السريانيّة ١، (الموصل،١٩٠٧) النصّ السرياني ص١٤٦، والترجمة الفرنسيّة ص١٧٥، وغيرهما.

٢ ـ سَهدونا: من مشاهير كتبة النساطرة في القرن السابع، تعلّم في نصيبين، أرسله سيرويه ملك العجم مع إيشوعياب الجدلي سفيرًا إلى هرقل ٦٣٠، له تآليف دينيّة.

٣ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

في نهاية العهد الأمويّ كانت الكنيسة السريانيّة الشرقيّة لا تزال ناشطة في التبشير حتّى وصلت إرساليّاتها إلى الصين سنة ٦٣٥ وإلى التيبت. وهكذا نشرت بذور ثقافتها من قبرص إلى منجوري وإلى جزر جافا وسومطرا. إلاّ أنّ الاضطهادات القاسية التي تعرّضت لها المسيحيّة في الصين قد أخمدت جذوة الرسالة المسيحيّة هناك ولم تستعد حيويّتها من جديد إلاّ في القرن الحادي عشر. وفي سنة ١٢٧٥ أُسّس في العاصمة بيكين مركز الرئاسة الأسقفيّة. لكنّ المسيحيّة لم يُكتب لها تاريخ طويل في القسم الشرقيّ من آسية، فقد قضى المغول عليها، كما قضوا على معالم الحضارة والتاريخ في كلّ بلد اجتاحوه، إلى أن وصلوا إلى بغداد منتصف القرن الثالث عشر فقضوا على أروع حضارة وأغزر تراث تركه العرب بعد اندماجهم بالفكر الفلسفيّ اليونانيّ عن طريق المترجمين والشرّاح السريان[١].

وقد ذكر مؤرّخو السريان الغربيّين أنّ أبرشيّات الكنيسة النسطوريّة كانت تمتدّ من الصين حتّى الهند وماداي وآثور وبابل والعراق وما بين النهرَين وإلى سورية وفلسطين وقبرص ومصر وإلى أرمينيا والكرج وبلاد العرب. وأنّ عدد تلك الأبرشيّات النسطوريّة قد بلغ في القرون الوسطى زهاء مائة أبرشيّة خاضعة كلّها لجاثليق[٢] المدائن وبغداد[٣].

---

١ ـ الجميل المطران ميخائيل، كنيسة السريان الكاثوليك، مرجع سابق، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

٢ ـ **جاثليق وجثليق**: رتبة كنسيّة عالية في الكنيسة الأرمنيّة والكنيسة السريانيّة القديمة لعلّها بمثابة رتبة البطريرك عند سائر الكنائس الشرقيّة، ترجمتها "رئيس عام".

٣ ـ طرّازي، أصدق ما كان، ١: ٧١، عن: أدي شير المطران الكلداني، تاريخ كلدو آثور، المقدّمة.

وإذا كانت الكنيسة السريانيّة الشرقيّة قد استمرّت بنشاطها التبشيريّ في مناطق الشرق الأقصى وإن في ظلّ الإسلام، فإنّها في المقابل قد أدّت للمسلمين خدمات جلّى في أعمال التأليف والترجمة والطبّ والعلوم، خاصة في عهد الخلافة العباسيّة، واشتهر من رعاياها نخبة من الأطبّاء والعلماء والمترجمين. وقد لمع في هذه الحقبة إسم البطريرك طيموتاوُس الأوّل الملقّب بالكبير (بطريرك٧٨٠ ـ ٨٢٣)[١]، وهو الذي نقل الكرسيّ البطريركيّ لهذه الطائفة إلى بغداد[٢]. ويذكر بعض العاملين على إبراز تراث الكنيسة السريّانيّة الشرقيّة أنّ طيموتاوُس، كان إداريًّا محنّكًا وعالمًا نحريرًا وسياسيًّا مرنًا، عرف أن يبلغ بكنيسته إلى أوج مجدها وازدهارها، وأن يذود عنها في الفترات الصعبة التي حاول فيها بعضهم أن يثيروا عليها عواصف المحن والاضطهادات. وبالإضافة إلى تضلّعه من مختلف العلوم والترجمات التي قام بها والقوانين التي وضعها، أدرك البطريرك طيموتاوس أنّ أهمّ عنصر للاستقرار في كنيسة المشرق ولازدهارها يكمن في حسن اختيار رؤسائها وثقافة كهنتها وقداستهم. وكانت رغبة التفاهم مع الحكم العبّاسيّ في نظر طيموتاوس ضرورة حيويّة للكنيسة. ولكي يكون المسيحيّون حقًّا في صميم معترك الحياة السياسيّة والثقافيّة، قرّر، منذ مطلع عهده، أن ينقل مقرّ البطريركيّة من المدائن إلى بغداد العاصمة الجديدة. فقد أدرك أنّ للكنيسة دورًا هامًّا تجاه المجتمع، وأن خير وسيلة لتجنّب الظنون والشكوك تجاهها هي أن

---

١ ـ طيموتاوُس الكبير (٧٢٨ –٨٢٣): بطريرك سريانيّ شرقيّ، ولد في حزة (إربيل)، تعلّم على إبراهيم برشنداد في مدرسة باشوش في منطقة العقرة، أقيم أسقفًا لبيت غاش خلفًا لعمّه كيوركيس، انتُخب بطريركًا لكنيسة المشرق مطلع ٧٨٠، دامت رئاسته أكثر من أربعين سنة في عهد خمسة خلفاء عبّاسيّين متعاقبين ارتبطت علاقاته معهم بالمودّة والدالّة خاصّة مع المهدي وهارون الرشيد.

٢ ـ بداويد البطريرك روفائيل، الكنيسة الكلدانية، مجلّة المنارة، العددان الأوّل والثاني، (١٩٨٦) ص١٧٩ـ١٨٠.

تكون في صميم حياة المجامع، وأن تتعاون في بناء البلاد، بواسطة أطبّائها وكتّابها وعلمائها ومترجميها. ولم يشأ طيموتاوس أن تعيش كنيسته في الخفاء وعلى هامش الحياة العامّة وترفض كلّ تعاون مع الحكم القائم. ومهما قيل عنه، فإنّه كان رجل المبادئ، متديّنًا أصيلاً، ودبلوماسيًّا لبقًا. كان رجل علم وفي الوقت نفسه رئيسًا يعيش في صميم الواقع. وعرف كيف يقرن الصرامة بالتواضع والسلطة بالخدمة، مع الكثير من الفطنة والمرونة والانفتاح. لذا فقد كان عهده عهد يُمن وبركة لكنيسة المشرق التي تذكره بإجلال وتطلق عليه لقب "الكبير". وفي عهده حظيت الكنيسة باحترام جميع الفئات في البلاد، وأسهم علماؤها في إعلاء شأن الثقافة فيها. أمّا أطبّاؤها، فقد نالوا حظوة كبيرة في البلاط العبّاسيّ، وتمكّنوا من القيام بدور بنّاء في الكنيسة. وقد امتاز بين هؤلاء الأطبّاء آل بختيشوع الذين تعاقبوا في خدمة الخلفاء، بالتعاون مع غيرهم من الأطبّاء. وهذا كلّه أولى كنيسة المشرق وجهًا مشرقًا وجعلها رائدة العلوم والثقافة في البلاد مدّة قرون طويلة[١].

من أبرز الذين اشتهروا في أعمال الترجمة إلى العربيّة من المسيحيّين السريان الشرقيّين في العهد العبّاسيّ، يوحنّا بن ماسويَه، الذي يذكره العرب باسم يحيى، وقد ترجم عدّة كتب بناء على طلب هارون الرشيد الذي كان قد غنمها بخلال غاراته على آسية الصغرى. وكان معظم تلك المؤلّفات في الطبّ، وكان يوحنّا طبيب البلاط العبّاسيّ من أيّام الرشيد حتّى أيّام المتوكّل[٢]. وهنالك يوحنّا آخر برع في مجال الترجمة من اليونانيّة إلى العربيّة هو يوحنّا بن البطريق المعروف بيوحنّا الترجمان، وهو عالم

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

٢ ـ راجع: القفطي، ص ٣٨٠؛ إبن العبري، ص ٢٢٧.

مسيحيّ وُلد نحو ٨١٥، انصرف إلى ترجمة المؤلّفات اليونانيّة إلى العربيّة، وأهمّ ما نقله إلى العربيّة: "كتاب السياسة في تدابير الرئاسة"، و"المقولات العشر" لأرسطو، وكتاب "الأربعة" لبطليمُس، وكتاب "طيماوُس" لأفلاطون.

ومن عظماء أبناء الكنيسة السريانيّة الشرقيّة الذين برزت أعمالهم الفكريّة في ذلك العصر، حنين إبن إسحق، الطبيب والشمّاس، وهو من قبيلة عباد العربيّة، وُلد في الحيرة العراقيّة، ودرس الطبّ في بغداد، وتضلّع من العربيّة. وقد عيّنه الخليفة المأمون على "بيت الحكمة" وهي المؤسّسة التي أنشأها ذلك الخليفة وأقام فيها مكتبة ومتحفًا ومعهدًا للترجمة، وما لبث حنين أن انصرف إلى الترجمة، فنقل إلى السريانيّة والعربيّة بعض كتب أفلاطون وأرسطو وديوسقوريدس وجالينس، كما ألّف كتابَي "عشر مقالات في العين" و"المدخل في الطبّ". ويبدو أنّ إسحق بن حنين، كان يساعد أباه في أعمال الترجمة، وكذلك حبيش، ابن شقيقة حنين. فكان يترجم من اليونانيّة إلى السريانيّة ويقوم إسحق وحبيش بالترجمة من السريانيّة إلى العربيّة[1]. وقد اشتهر حنين، إضافة إلى علمه ومعرفته وخدماته الجلّى التي أدّاها للعلم والمعرفة، بنبله ورفعة أخلاقه، حتّى أنّه فضّل السجن على تلبية طلب المتوكّل الذي أراده أن يركّب سمًّا قاتلاً ليقتل به أحد أعدائه. أمّا ولده إسحق الذي توفّي في بغداد سنة ٩١١، فقد نقل إلى العربيّة، إضافة إلى معاونته لأبيه، "أصول الهندسة" لإقليدس، و"المجسطي" لبطليمُس، و"الكرة والأسطوانة" لأرخميدس، و"سوفسطس" لأفلاطون، و"المقولات" لأرسطو. وعُرف إسحق بأنّه طبيب وفيلسوف وبأنّه كان نسطوريًّا.

---

١ ـ راجع: إبن خلّكان، وفيات الأعيان، (القاهرة، ١٢٩٩ هـ) ١: ١١٦؛ إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء (القاهرة، ١٨٨٢) ١: ١٨٧ و٢٠٣؛ الفهرست، ص ٢٩٧.

ومن مشاهير العلماء السريان في تلك الحقبة، عبد المسيح الكندي، وهو الكاتب النسطوريّ الذي عاش في القرن التاسع، وله رسالة طويلة إلى عبدالله الهاشميّ يدعوه بها إلى المسيحيّة، وهي أقدم نصّ معروف بهذا المعنى.

ويبقى اسم أبي بشر متّى بن يونس المنطقيّ، ساطعًا فوق أعلام الفلسفة السريانيّة والعربيّة، فإنّ هذا الفيلسوف والطبيب النسطوريّ المولود في بغداد والمتوفّي فيها سنة ٩٤٠، قد علّم مفخرة العرب: الفارابيّ، الفلسفة. ولقد قيل في أبي بشر: "إليه انتهت رئاسة أهل المنطق في أيّامه". وهو أوّل مَن نقل عن اليونانيّة "بويتيكا" أو "كتاب الشعر" لأرسطو، وعن السريانيّة كتاب "البرهان" لإسحق بن حنين. وهو مَن شرح كتاب "إيساغوجي" لبورفيريوس.

ويبدو من خلال الأبحاث الحديثة أنّ كنيسة المشرق لم تكتف في تلك الحقبة من التاريخ بإيلاء الأمور الظاهريّة والعلاقات الخارجيّة اهتمامها، بل ظهر فيها أشخاص حاولوا استجلاء طابعها العميق وتسليط الأضواء على روحانيّتها الأصيلة. ومن المتصوّفين اللاهوتيّين الذين برزوا في القرن الثامن، كان "يوسف حزايا" الذي كتب في مختلف نواحي الحياة الروحيّة، ولا سيّما في التأمّل أو المشاهدة (تيوريا)، و"يوحنّا الدلياني" الذي يُعتبر إمام المتصوّفين في كنيسة المشرق في القرن الثامن[1]. إلاّ أنّ رؤساء الكنيسة لم يقيموا وزنًا في ذلك التاريخ لِما في تلك الكتابات من غنى روحيّ لحياة المؤمنين[2].

---

١ ـ راجع: دكّاش الأب سليم اليسوعي، مجموعة رسائل يوحنّا الدلياني، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق (بيروت،١٩٨٦)

٢ ـ راجع: أبونا، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

ويروي باحث من علماء الكنيسة الكلدانيّة المعاصرة أنّ كنيسة المشرق قد اشتهرت في تلك الحقبة بمدارسها العديدة المنتشرة في طول بلاد ما بين النهرَين وعرضها. ونقل عن مؤرّخ معاصر لتلك الحقبة قوله إنّه كان لنصارى في ما بين النهرَين نحو خمسين مدرسة درّسوا فيها العلوم الآراميّة واليونانيّة. وقد ألحقوا بهذه المدارس مكتبات. وكان في أديا ، شيء كثير من الأسفار ومن الكتب المترجمة إلى الآداب النصرانيّة من مؤلّفات أرسطو وجالينس وسقراط. لأنّهم كانوا محور الدائرة العلميّة في ذلك العصر، ونقلة الثقافة اليونانيّة إلى الأمبراطوريّة الفارسيّة، ثمّ إلى الخلافة العبّاسيّة[1]. وجاء في بعض الأبحاث أنّ باباي الجبيلتي الملفان أسّس نحو ستّين مدرسة في منطقتَي أربيل ومرج الموصل في القرن السابع، وزوّدها بجميع المستلزمات وبالأساتذة[2].

وكان مار آبا الكبير (٥٤٠ ـ ٥٥٢) قد أسّس مدرسة المدائن في النصف الأوّل من القرن السادس، واستمرّت زمنًا إلى أن أصابها الذبول لدى انتقال الكرسيّ البطريركيّ إلى بغداد في نحو سنة ٧٨٠. واشتهرت في عهد الخلفاء العبّاسيّين الأوائل مدرسة جنديسابور التي كانت قد أُسّست منذ زمن بعيد وتعاقب على إدارتها آل بختيشوع الذين زوّدوا الدولة العبّاسيّة بخيرة أطبّائها. وكذلك مدرسة "دير قنّى" التي تُنسب إلى مار ماري الذي بشّر المنطقة في نهاية القرن الأوّل، ومن الذين اشتهروا بين تلامذتها ومدرّسيها أبو بشر متّى بن يونس (ت٩٤٠) العالم المنطقيّ الذائع الصيت الذي، كما ذكرنا في مكان آخر، قرأ عليه الفيلسوف الكبير الفارابي. ومن المدارس السريانيّة

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

٢ ـ المرجي توما، كتاب الرؤساء، ترجمة الأب ألبير أبونا (الموصل،١٩٦٦)، ص١٢٦ ـ ١٢٨.

المشرقيّة التي اشتهرت أيضًا في الحقبة العبّاسيّة مدرسة "إيثالاها" بالقرب من دهوك، ومدرسة الدير الأعلى في الموصل وقد أُطلق عليها لقب "أمّ الفضائل"[1].

الإنتِكاسَات الخَطيـرَة

بعدما نمت الكنيسة السريانيّة الشرقيّة في ظلّ حكم أوائل الخلفاء العبّاسيّين نموًّا سريعًا، وتكاثرت أبرشيّاتها وعمرت ديورتها وامتدّت كنيستها امتدادًا واسعًا، فبلغت في أراضي الصين نفسها[2]، فإنّها في ظلّ السياسة الرجعيّة التي ظهرت في البلاد جرّاء تزمّت الخلفاء العبّاسيّين الذين خلفوا المأمون (٨١٣ ــ ٨٣٣)، والنكسة الخطيرة التي أصيبت بها الثقافة، عانت الكنيسة السريانيّة الشرقيّة، كما سواها، ممّا تعرّض له العلماء من إهمال ومضايقات. فشرع نفوذ الأطبّاء والعلماء المسيحيّين يتضاءل مع تراجع الاهتمام بالعلوم. في الوقت نفسه، لم يظهر في الكنيسة السريانيّة الشرقيّة قادة من الطراز الأوّل. ذلك أنّ كلاً من رؤساء هذه الكنيسة قد قضى مدة وجيزة في الرئاسة، دون أن يتميّز أحد منهم بمؤهّلات المقدرة، ربّما بسبب تقدّمهم في السنّ ووضاعة ثقافتهم. فراحت هذه الكنيسة تمرّ في حال تقهقر وسط تعرّض أهل الذمّة في البلاد لمساوئ كثيرة من قِبَل الحكّام المستبدّين الذين تصرّفوا على أهوائهم، ما أدّى إلى تحكّم الغرباء بمصائر الخلفاء، وبالتالي إلى السيطرة على الخلافة في مختلف أرجاء الدولة المترامية الأطراف، وإلى نشوء دول

---

١ - راجع: أبونا، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

٢ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٥٧.

عديدة وإمارات مستقلّة في قلب الخلافة العبّاسيّة وعلى أطراف حدودها، وصولاً إلى سقوط الدولة العبّاسية تمامًا.

رافق ذلك اجتياح المغول بدءًا بهولاكو سنة ١٢٥٨ حفيد جنكيزخان (١١٥٥ ـ ١٢٢٧). وما إن استولى هولاكو على بغداد حتّى أعمل فيها الدمار والخراب والهلاك، وقضى على الخليفة العبّاسيّ المستعصم وأعوانه لرفضه الاستسلام.

ويذكر مؤرّخون كلاسيكيّون أنّ النساطرة لم يتأثّروا كثيرًا في بداية الزحف المغوليّ على بلاد آسيا في العام ١٢٥٨، بلّ ظلّت كنيستهم تنعم بالحريّة الدينيّة، حيث أنّ الكثيرين من المغول كانوا قد اعتنقوا المسيحية النسطوريّة منذ الجيل السابع، حتّى إنّ أحد هؤلاء المغول: "يولاها[١]"، قد تبوّأ السدّة البطريركيّة (١٢٨٣ ـ ١٣١٧)[٢]، ونقل مقرّه إلى ماراغا في بلاد المغول. وشهد الرحّالة الكبير البندقيّ ماركو باولو انتشار هذه الكنيسة، وذكر أنّه التقى البطريرك النسطوريّ المغوليّ "يولاها[١]" الثالث في بلاط الأمير المغوليّ إيلخان، وتحقّق من عمل كنيسته التبشيريّة وتنظيمها وانتشارها في شتّى البلدان.

بيد أنّ بحّاثة سريانيًا شرقيًا محدثًا مدقّقًا يصف حقيقة ما تعرّض له المسيحيّون السريان الشرقيّون (النساطرة) عند اجتياح المغول لبغداد سنة ١٢٨٥ فيقول:

> بعد المجزرة الرهيبة التي قضت على أعداد غفيرة من سكّان العاصمة، اهتمّ هولاكو بإعادة تنظيم الإدارة في بغداد، ووضع على رأسها بعض المسؤولين في العهد السابق، لا سيّما الذين تعاونوا معه سرًّا، ريثما تتكوّن له مجموعة من

---

١ ـ في الواقع لم يكن إسم هذا البطريرك "يولاها" بل "يهبالاها" كما سيأتي لاحقًا.

٢ ـ الأصحّ (١٢٨١ ـ ١٣١٧) كما سيأتي لاحقًا.

الإداريّين المغول. في هذه الأثناء، جمع الجثليق* مكيخا الثاني بطريرك السريان الشرقيّين (١٢٥٧ ـ ١٢٥٦) أبناء رعيّته في كنيسة "سوق الثلاثاء"، في الجانب الشرقيّ من بغداد، وأبقاهم هناك طوال مدّة الفوضى، بحيث لم يصب أحد منهم بأذى. وقد وضع كثير من المسلمين أموالهم لدى الجثليق، آملين في استعادتها في حال نجاتهم من القتل. لكنّ المسيحيّين، بالرغم من حماية زوجة هولاكو المسيحيّة النسطوريّة "رقوز خاتون" لهم، لم يكونوا في وضع مستقرّ، بل غالبًا ما شاطروا المسلمين مصيرهم وتعرّضوا للقتل والسلب والنهب. وسرعان ما تبخّرت الآمال التي راودتهم حينًا في العيش باطمئنان في ظلّ الفاتحين الجدد، ذلك أنّ المغول قد عاملوهم في البداية معاملة حسنة، حتّى أنّ هولاكو قد وهب للجثليق "مكيخا" دار الخليفة المعروفة بـ"دار الدويدار" الواقعة على دجلة، فسكن فيها وأقام بداخلها كنيسة وهناك تُوفّي ودُفن[1].

على أنّ المغول ما لبثوا أن عاملوا المسيحيّين على مختلف مللهم بهمجيّتهم المعروفة، كما يُجمع المؤرّخون. وقد أرّخ باحثون كنسيّون سريان شرقيّون محدثون هذه الحقبة على الشكل التالي:

لقد استعاد السلاطين المغول العادة التي كانت جارية لدى الساسانيّين، ثمّ لدى المسلمين، في تأييدهم ودعم انتخاب الرؤساء في كنيسة الشرق. وهكذا، بعد موت الجثليق "مكيخا" الثاني سنة ١٢٦٥، خلفه الجثليق "دنحا" (١٢٦٦ ـ ١٢٨١)، وأيّد "أباقاخان" هذا الانتخاب وشرّف الجثليق الجديد بالخلعة السنيّة والفرمان وغيرها من آيات السلطة والكرامة. لكنّ المسيحيّين تعرّضوا في أماكن شتّى لمضايقات كثيرة، من جرّاء الفوضى السائدة في البلاد، بالرغم من الحماية التي كانوا يحظون بها من

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢٢٢، عن: صليبا، المجدل، (روما،١٨٩٦) ص١٢٠ ـ ١٢١.

شخصيّات مسيحيّة تمكّنت من الوصول إلى مناصب مرموقة في البلاد. ونرى أنّ الملكة "قوتاي خاتون" نفسها تتدخّل لحمل المسيحيّين على الاحتفال ببعض أعيادهم علنًا[1]. و"أباقاخان" يذهب إلى همدان سنة ١٢٨٢ ويشترك مع المسيحيّين في عيد القيامة في كنيستهم. وفي تلك الغضون، كان راهبان مسيحيّان من أنحاء بكين، أحدهما يُدعى صوما والآخر مرقس، قد وطّدا العزم على زيارة الأماكن المقدسة، ولم تحُل الصعوبات والاضطرابات دون تحقيق عزمهما، فشدّا الرحال نحو المناطق الغربيّة، ولكنّهما لم يستطيعا الوصول إلى الأماكن المقدّسة بسبب الاضطرابات والحروب الدائرة في المنطقة، فعادا إلى الجثليق الذي كانا قد التقياه سابقًا في مراغة، فرسم مرقس "مطرافوليطًا" لأبرشيّة "خطاي" الصينيّة، وسمّاه "يهبالاها"، وأقام صوما زائرًا عامًّا للمناطق الصينيّة. ولكنّ طرق العودة إلى بلادهما أيضًا قد انقطعت، فاضطرّ يهبالاها وصوما إلى المكوث في دير مار ميخائيل "ترعيل" بالقرب من أربيل طوال سنتين[2]. وفي سنة ١٢٨١، توفّي البطريرك دنحا، فاجتمع المطارنة وقرّ رأيهم على انتخاب يهبلاها المغوليّ خلفًا له، وذلك إرضاء لأسياد البلاد، ولكون المنتخَب على معرفة بلغة المغول وعوائدهم، بالرغم من قلّة اطّلاعه على التعاليم الكنسيّة وجهله اللغة السريانيّة وعدم كفاءته في الشؤون الإداريّة. فقبل يهبالاها هذه المهمّة على مضض. وكانت سنواته الأولى صعبة، لا سيّما أنّ السلطات انتقلت إلى "تكودار" الذي اعتنق الإسلام وأساء إلى المسيحيّين. ولمّا اغتيل سنة ١٢٨٤، خلفه "أرغون"

---

١ ـ هنا يورد الباحث الحاشية التالية: راجع ابن العبري، تاريخ الزمان، الترجمة العربيّة إسحق أرملة، دار المشرق (بيروت،١٩٩١) ص٣٣٨.

٢ ـ هنا يورد الباحث الحاشية التالية: طالع: قصّة مار يهبالاها والربّان صوما، وقد نشر الأب بيجان نصّها السريانيّ في باريس ١٨٩٥.

الذي لم يسر على سياسته، بل كان متسامحًا مع الديانات الأخرى ومنفتحًا على الغرب. وكان أرغون خان يمنّي النفس بالاستيلاء على سورية وفلسطين، وكان يفتقر إلى مساندة الدول الغربيّة، فأرسل الربّان صوما إلى رومة وإلى الملوك الغربيّين، وزوّده بالرسائل وبالهدايا المناسبة، كما أنّ الجثليق يهبالاها أعطاه رسائل وهدايا إلى البابا. فذهب الربّان صوما إلى فرنسا وإنكلترا حيث التقى ملكَيهما. ودارت في رومة نقاشات حول القضايا الإيمانيّة، وكانت أجوبة السفير مرضية، واشترك معهم في الأسرار، وسُرّ به الجميع. ولدى عودته، زوّده البابا بذخائر متنوّعة وأرسل معه تاجه الخاص إلى مار يهبالاها مع حلل فاخرة، ومرسومًا يخوّل البطريرك السلطة على المشرق كلّه، كما أرسل بركاته إلى الملك أرغون. وعاد الربّان صوما إلى الشرق وقابل الملك أرغون وأطلعه على نتائج رحلته. ففرح الملك وأراد أن يبقيه عنده في خدمة كنيسته المتنقّلة، ولكنّه رفض، وفضّل أن يقوم الجثليق نفسه بهذه المهمّة. وكان مار يهبالاها الثالث متّسمًا بروح مسكونيّة. وقد برهن عن ذلك من خلال علاقاته بالمونوفيزيّين الساكنين في بلاد الشرق، لا سيّما بابن العبري، وبالمرسَلين الغربيّين الذين شرعوا يتوافدون على المنطقة. فأفسح أمامهم المجال لممارسة رسالتهم بين مؤمني كنيسة المشرق. أمّا علاقته برومة فكانت علاقات تتّسم بالاحترام والاعتراف الضمنيّ برئاسة البابا. وقد أعرب عن ذلك في الرسائل التي وجّهها إلى رومة في السنوات اللاحقة. وتوفّي الملك أرغون سنة ١٢٩١، وخيّم الحزن على المسيحيّين بموته. وإذا استمرّ خليفتاه "كيخاتو" و"بايدو" على خطّته المسالمة، فإنّ "غازان" الذي جاء إلى الحكم سنة ١٢٩٥، تبنّى خطّة مغايرة. فقد تبنّى المغول الإسلام، وشرعت المصائب تنهال على البطريرك والمسيحيّين. فتعرّض يهبالاها للإهانات، ولم ينجُ من الموت إلاّ بأعجوبة، وساعده الملك "هيثم" الأرمنيّ على الفرار من مراغة متنكّرًا. وما إن عاد الاستقرار

وتمكّن البطريرك من العودة إلى كرسيّه في "مراغة"، حتّى ثارت فتن أخرى نغّصت حياته ... وكانت محنة كبيرة تنتظره في أربيل سنة ١٣١٠، حيث قامت فئة من الغوغائيّين بإثارة مشاعر السكّان المسلمين على المغول وعلى المسيحيّين، وحدثت مجزرة رهيبة راح ضحيّتها المئات من المسيحيّين، وكاد البطريرك نفسه أن يلقى فيها حتفه. وانتهت المأساة باحتلال المسلمين لقلعة أربيل وبقتل المسيحيّين فيها ونهب كلّ شيء والقضاء على الوجود المسيحيّ هناك. وحاول البطريرك المسكين إطلاع رؤساء المغول على تلك الكارثة، ولكنه لم يلقَ منهم آذانًا صاغية. فعاد إلى مقرّه في مراغة وهو يقول: "لقد سئمت من خدمة المغول". ومكث هناك إلى أن وافاه الأجل سنة ١٣١٧. وتعاقب البطاركة على كرسيّ كنيسة المشرق بالرغم من اضطراب الأحوال في نهاية العهد المغوليّ. فجعل طيموتاوس الثاني (١٣١٨ ـ ١٣٣٢) مقرّه بالقرب من أربيل، وحاول أن يجمع شمل مؤمنيه وأن ينفحهم بروح الإيمان والثقة. ثمّ خلفه البطريرك دنحا الثاني (١٣٢٢ ـ ١٣٦٥) الذي نقل كرسيّه إلى قرية "كرمليس" في منطقة الموصل حيث احتمى بسلطة بعض الأمراء المسيحيّين. أمّا حكم المغول فقد أصابه الانحلال والانحطاط إلى أن انهار تحت ضغط الفئات الطامعة في البلاد... وحاولت كنيسة المشرق الابقاء على مستواها الثقافيّ، رغم تلك الظروف الحرجة. وكان آخر مَن حمل مشعل العلم والآداب السريانيّة الأصيلة هو "عبد يشوع الصوباوي" (ت١٣١٨) الذي يُعتبر خاتمة عهد الآداب السريانيّة الزاهر. كما أنّ إبن العبري (ت١٢٨٦) كان خاتمة العلوم والآداب في الكنيسة السريانيّة الغربيّة الشقيقة[1].

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

ويختصر باحثون في شؤون الكنائس الشرقيّة ما شهدته الكنيسة السريانيّة الشرقيّة في حقبة المغول بالقول إنّه لمّا استولى المغول على بغداد بزعامة هولاكو (١٢٥٨ ـ ١٢٦٥)، لم يتعكّر صفاء عيش النساطرة، بل نعموا بالحريّة الدينيّة وطمأنينة الضمير. ولم يتسرّب الفتور إلى قلب الكنيسة النسطوريّة إلاّ في عهد تيمورلنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥)، فتقلّص ظلّها وقلّ عدد أبنائها، وتفرّقوا في العراق وبلاد العجم[١].

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٥٧.

إمتناع الكنيسة السّريانيّة الشّرقيّة

في بلادِ أشُور

تدل الدراسات على أنّ الكنيسة السريانيّة الشرقيّة، في مُنصرم القرن الثالث عشر، كانت تعدّ أكثر من ٢٣٠ أبرشية موزّعة على ٢٧ رئاسة أسقفيّة MÉTROPOLE، منتشرة فوق آسيا الوسطى والمناطق المجاورة[١]، وقد بلغ عدد التابعين لهذه الكنيسة قرابة ثمانين مليون نسمة[٢].

بعد غزو الترك لآسيا الوسطى، حدثت انقلابات عرقيّة مختلفة رجحت في خلالها كفّة العناصر التركيّة على سواها في مناطق ما وراء النهر. وعندما جاء تيمورلنك (١٣٣٦ ــ ١٤٠٥) وقضى على الكنيسة المشرقيّة النسطوريّة في المناطق الشرقيّة، تقلّص ظلّها وقلّ عدد أبنائها الذين أسلم منهم مَن أسلم وفرّ الباقون إلى مناطق مختلفة.

ففي قبرص انضمّ النساطرة إلى الوحدة مع روما. وفي الشرق الأوسط أخذ المرسَلون الفرنسيسكان والدومينيكان يعيدون الكثير من أبناء كنيسة المشرق إلى الوحدة مع روما، وقد واصلوا مهمّتهم هذه ومدّوها إلى الشرق الأقصى. وفي الهند انضمّ قسم من مسيحيّي مار توما إلى المونوفيزيّة وغيرهم إلى

---

١ - JANIN, *LES ÉGLISES D'ORIENT*, P. 163.

٢ - بداويد البطريرك روفائيل، الكنيسة الكلدانيّة، مجلّة المنارة، العددان الأوّل والثاني (١٩٨٦) ص١٨١.

اللاتينيّة[1]. ولم يبقَ من النساطرة في العراق إلاّ قسم ضئيل لجأ إلى الجبال التي حملت اسم كردستان وبلاد العجم[2]، حيث انكمش هذا الشعب على ذاته وانعزل متّبعًا نمط حياة بطريركيًّا قبليًّا، قائمًا على الصلابة، ومنغلقًا. حتّى إنّ الخلافة البطريركيّة في جبال كردستان أصبحت منذ سنة ١٤٥٠ وراثيّة من عم إلى ابن أخ متّخذين اسم شمعون أو إيليّا[3]، وذلك وفق شروط خاصّة[4]، فكان "يُفترض بالبطريرك العتيد ألاّ يكون قد أكل لحمًا قط، وإنْ في أحشاء أمّه، التي يجب عليها الامتناع عن هذا الطعام أثناء حبلها به"[5].

هذا الانعزال جعل أتباع الكنيسة السريانيّة الشرقيّة في العراق يُعرفون بالأشوريّين نسبة إلى البلاد التي توطّنوها، وامتنعوا في جبالها، مثلما فعل الموارنة في جبل لبنان، ومثل هؤلاء حقّق أولئك نوعًا من الاستقلال الواقعيّ، حيث لم يكن أحد ليجرؤ على

---

١ - أبونا، مرجع سابق، ص٢٢٤؛ ولكن يبدو أنّ قسمًا من أبناء الكنيسة السريانيّة الشرقيّة في الهند قد بقي على انتمائه، فإنّ المرجع نفسه يذكر أنّه في مطلع القرن السادس عشر، جاء أسقف كلدانيّ من الهند إسمه توما، وقدّم التماسًا إلى البطريرك إيليّا الخامس (١٥٠٢ - ١٥٠٤) يطلب منه أن يرسم أساقفة للهند، فرسم لهم ثلاثة أساقفة وأرسلهم إلى هناك.

٢ - بداويد، مرجع سابق، ص١٨١.

٣ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٦٤.

٤ - تنبئ مدوّنات أنّ العائلة التي كانت تسيطر على الشؤون الدينيّة في كنيسة الشرق يومذاك هي عائلة "أبونا"، ويروي بحذاقة معاصر يتحذر من هذه العائلة (أبونا، مرجع سابق، ص٢٢٥.) أنّ من أعضاء هذه الأسرة كان يتمّ انتخاب الجثالقة (البطاركة) وكان طيموتاوس الثاني (١٣١٨ - ١٣٢٢) هو الأول من هذه السلالة، وتتابع الجثالقة "الأبونيّون" على كرسيّ المشرق، عن طريق الانتخاب الشرعيّ، إلى البطريرك شمعون الباصيدي (١٤٣٧ - ١٤٦٧) الذي سنّ قانونًا يقضي بإقامة بطاركة من عائلة "أبونا" دون غيرها، فتنتقل الرئاسة من شخص إلى أخيه أو ابن أخيه. وهكذا أصبحت البطريركيّة وراثيّة في كنيسة المشرق، وكانت نتائج هذا الإجراء وخيمة على الكنيسة، إذ ارتقى السدّة البطريركيّة أناس غير جديرين على جميع الأصعدة، دون أن يبالوا باحتجاجات الأساقفة والمطارنة الذين أدركوا ما ينطوي عليه هذا القانون من الغبن لحقوقهم المشروعة ومن الشرّ للكنيسة.

٥ - RONDOT PIERRE, *LES CHRÉTIENS D'ORIENT*, (PARIS, 1955) P.159.

اجتياز مواقعهم. فبلاد أشور قديمة في شمالي ما بين النهرَين، استوطنها منذ الألف الثاني قبل الميلاد شعب ساميّ قديم وأنشأ فيها دولة ازدهرت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فبسطت سيادتها على سائر بلاد ما بين النهرَين ثمّ امتدّت إلى سائر بلدان الشرق، وكانت لها أمبراطوريّة واسعة. إشتهر من ملوكها تغلاتفلاسر الأوّل ١١١٧ ـ ١٠٧٧ ق.م.، وسرجون الثاني ٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م.، وأشور بانيبال ٦٦٩ ـ ٦٣٠ ق.م.، إلى أن قضى عليها الميديّون والبابليّون ٦١٢ ـ ٦١٠ ق.م.؛ أمّا مدينة أشور فيعود تأسيسها إلى الألف الثالث ق.م.، وقد جعلها الأشوريّون عاصمتهم الأولى، فأقام فيها توكوليتي ـ نيتورتا الأوّل ١٢٦٠ ـ ١٢٣٢ ق.م. هيكلاً للإله أشور، كبير الآلهة عند الأشوريّين القدماء، وهو إله الحكمة والحرب الذي حلّ محلّ الإله إنليل في القرن الثالث قبل الميلاد. ومن الباحثين مَن يعتبر أنّ المدينة قد بُنيت على إسم هذا الإله وليس العكس. وقد استمرّت، حتّى انتقال العاصمة إلى نينوى في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، مركزًا دينيًّا خطيرًا. ثمّ احتلّها الفرثيّون سنة ١٤٠ ق.م. فازدهرت في أيّامهم إلى أن خرّبها الرومان وأتمّ الفارسيّ شابور الأوّل تدميرها سنة ٢٥٧.

هذه هي البلاد التي امتنع فيها السريان الشرقيّون وحملوا اسمها، وقد دام هذا الامتناع طويلاً: فإنّ موظّفًا عثمانيًّا اضطرّ سنة ١٨٣٥ إلى أن ينتقل من الموصل نحو القسطنطينيّة عبر طريق غير طريق ديار بكر المعتادة، فاجتاز مناطقهم. ولقد دهش هذا الموظّف، أيّما دهشة، عندما قال للناس هناك إنّه عثمانيّ، ولم يفهموا معنى ذلك. بل لم يكونوا يعرفون شيئًا عن السلطان ولا يهتمّون بذلك أبدًا. وعندما أدركوا أنّه مسلم قالوا له إنّهم هناك منذ أزمنة ما قبل نبيّه محمد. وقد ترك هؤلاء الموظّف العثمانيّ المسلم يمرّ دون أذيّته، وافترقوا على نوع من العلاقة الطيّبة. وقالوا له إنّهم في ما

مضى لم يسبق لهم أن رأوا خيّالاً يجتاز جبالهم. وعندما وصل الرجل إلى "فان"، قال له أميرها إنّه لم يسبق له أن رأى إنساناً ينزل من تلك الجبال[1]!

مِن مآثر التُّـــرك

بقـي هؤلاء المسـيحيّون ممتنعيـن فـي جبـالهم حتّـى جاء المرسَلون الإنكليز فـي منتصف القرن التاسع عشر، وطلبـوا مـن السلطات العثمانيّـة أن تسـهّل لهـم الإتّصـال بهؤلاء في منطقة هاكياري HAKKIARI، فوجد الباب العالي من واجبه أن يؤمّن للإنكليـز الحماية ويوظّف هذه الخدمة لدى سفارته، وأنفذ العثمانيّون بذلك سلطتهم تدريجًا علـى أمير هاكياري الكرديّ الذي أُلزم بدفع الضريبة للسلطنة. وراح العثمـانيّون يحرّضـون الأكراد علـى المسـيحيّين، فقـام أمـير بوتـان الكـرديّ سـنة ١٨٤٣ بحملـة شرسـة علـى المناطق المسيحيّة، أتبعها بحملة أخرى سنة ١٨٤٦ نفّذ بخلالها جيشـه الكـرديّ مذبحـةً شـنيعةً ذهـب ضحيّتهـا عشـرات آلاف النسـاطرة، ودمّـرت الرسـالات الإنكليزيّـة والأوروبيّة التـي كـانت قـد أُسّسـت فـي تلـك المنـاطق. وعندمـا طـالبت لنـدن السـلطنة العثمانيّة بردع الأكراد، قام هذا الردع بتدمير إمارتَي أكياري وبوتان وبالسـيطرة علـى الأكراد والأشوريّين معًا، وبوضـع المنطقة تحت الرعاية العثمانيّـة المباشـرة[2]. وعندمـا اندلعـت الحـرب العالميّـة الأولـى، أمـر السـلطان العثمـانيّ محمّد رشـاد بإبـادة جميـع مسـيحيّي منطقـة هاكيـاري، ومعظمهـم مـن الأشـوريّين، وبعضهـم مـن الأرمـن.

١- RONDOT PIERRE, *LES CHRÉTIENS D'ORIENT*, P.161.

٢- OP. CIT., P. 161.

فراح الجنود، بمؤازرة الأكراد المسلمين، يذبحون أهالي القرى الأشوريّة المعزولة والخالية من السلاح، وقد اقتادوا الشبّان والرجال إلى مراكز السلطات العسكريّة وأبادوهم بالرصاص، ومَن استطاع منهم الهرب لجأ إلى قودجانس حيث مركز البطريركيّة، أو إلى أيّة عشيرة مُقيمة في الجبال. أمام هذا الواقع عمدت الدولة العثمانيّة إلى قطع الطريق بين العشائر ومركز البطريركيّة، وحرّضت الأكراد ضد الأشوريّين من جديد وسلّحتهم. فاشتعلت حرب بين الفئتَين غير متكافئة القوى[1]. وفي ١١ حزيران (يونيو) ١٩١٥ هاجمت العشائر الكرديّة، تدعمها الوحدات التركيّة بالرجال والسلاح، مواقع الأشوريّين في جميع الجهات. وقد استطاع المقاتلون المسيحيّون أن يفتحوا طريقًا إلى إيران نقلوا عبرها الأطفال والنساء وقطعان الماشية، ليتفرّغوا من ثمّ لحرب ضروس دارت رحاها بينهم وبين المسلمين من أكراد رعاع وعثمانيّين نظاميّين في جبال هاكياري، بيدَ أنّ استفرادهم من قِبَل الأمبراطوريّة جعلهم غير قادرين على الصمود أكثر من أربعة أشهر، انسحبوا بعدها إلى أذربيجان وتوزّعوا في مناطقها[2].

والذين صمدوا منهم متخفّين في الجبال، تعرّضوا لمذبحة على يد الأكراد بدعم تركيّ نهاية الحرب العالميّة الأولى سنة ١٩١٨، وقد نُقلوا على يد الجيش البريطانيّ إلى منطقة بغداد بقيادة زعيمهم آغا بطرس بعد مقتل قائدهم الدينيّ داود الملقّب بمار شمعون. وقد شكّل الجيش البريطانيّ فرقة عسكريّة من هؤلاء عملت إلى جانبه ضدّ الأكراد حينًا وضدّ العراقيّين حينًا آخر. بينما استمرّ نزوح الأشوريّين إلى العراق من

---

١ ـ أوشانا الأرشمندريت إيفان، المنارة، السنة ٢٧، العددان الأوّل والثاني (١٩٨٦) ص ١٦٩.

٢ ـ المرجع السابق، ص ١٧٠.

تركيا وإيران، ثم أقدم العراق سنة ١٩٢٦، إثر هذا التدفّق الكثيف، على إسكان الأشوريّين في شمالي البلاد. وفي العام ١٩٣١، وسط الحركات الكيانيّة في المنطقة، طالب الأشوريّين بالحصول على إدارة ذاتيّة هناك. وعندما اكتشفت الحكومة العراقيّة ربيع تلك السنة أنّ الأشوريّين يتعاونون مع الأكراد بهدف إنشاء كيان مستقلّ بدعم من البريطانيّين، سارعت إلى القبض على قادة تلك الحركة الذين اعترفوا بما نُسب إليهم من محاولات انفصاليّة باءت بالفشل. بيد أنّ ذلك لم يمنع الأشوريّين من أن يقوموا بحركة ثوريّة بهدف خلق وطن مستقلّ لهم سنة ١٩٢٣[1]. وكان الموصل أرض الحلم بوطنهم الموعود، بأقضيته الثلاثة: العمديّة وهوك وزاخو. وكان زعيم الأشوريّين، مار شمعون الجديد، قد توجّه إلى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ للمطالبة بوطن قوميّ للأشوريّين في العراق. ولكنّ عصبة الأمم قد اتّخذت يومها قرارًا برفض هذا الطلب. وإذ يئس الأشوريّون من الدعم البريطانيّ وحاولوا التعاون مع الفرنسيّين في سورية، توقّفت الدولة صاحبة التاج عن مدّهم بالمال والسلاح، فكان أن تعرّضوا للتّصفية العسكريّة في صيف ١٩٣٣[2].

وهكذا، فقد استمرّت المذابح التي تعرّض لها الأشوريّون، وإن بتقطّع، حتّى العام ١٩٣٣. فبعد منطقة هاكياري تعرّض سائر المناطق المسيحيّة المحيطة لهجمات مماثلة، وقد ناضل الأشوريّون وحدهم من أجل البقاء دون أنْ يمدّ لهم أحد يد العون. وكان آخر تلك المذابح الجماعيّة تلك التي جرت في خلال ثلاثة أيّام بين الخامس والسابع من شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٣٣، فكانت قاضية عليهم.

---

١ ـ محمود الدرّه، القضيّة الكرديّة (١٩٦٦) ص ١٦٢.

٢ ـ راجع: محمد السمّاك، الأقليّات بين العروبة والاسلام، دار العلم للملايين (بيروت،١٩٩٠) ص١١١.

إثر ذلك هاجر آلاف الأشوريّين إلى لبنان وإلى الولايات المتّحدة الأميركيّة. ونقل بطريرك النساطرة مقرّه إلى الهند. ومن تبقّى من الأشوريّين في العراق، وهو أقليَّة ضئيلة، توزّع على لوائَي الموصل وأربيل، وعلى مدينة بغداد. أمّا أوضاعهم الحياتيّة والمعيشيّة فتختلف باختلاف المنطقة التي يسكنونها. وقد غدوا على أي حال، أقليَّة مسالمة تتعاون مع كلّ حكم يقوم بالنظر لضعف شأنها ولانعدام إمكاناتها.

ولا يزال الشعب الأشوريّ، الذي تشتّت في العالم، يُحيي، في كلّ عام، ذكرى سقوط شهداء المذابح التي تعرّضوا لها في تلك الأيّام الثلاثة بين الخامس والسابع من شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٣٣.

أشُوريُّون
وكَلـدَان

لم تمنع الاضطهادات الدينيّة الشعب الأشوريّ من الانقسام كنسيًّا، على غرار ما حصل بالنسبة لسائر أتباع الكنائس الشرقيّة، ما سوف يؤدّي إلى انقسام الكنيسة السريانيَّة الشرقيّة، التي كانت تلقّب بالنسطوريّة، إلى كنيستَين: كلدانيّة كاثوليكيّة، وأشورية أرثذوكسيّة، وسوف تنقسم هذه الأخيرة لاحقًا بدورها إلى كنيستَين.

المحاولة الأولى التي جرت لضمّ هذه الكنيسة إلى روما كانت قد جرت في زمن المغول، في عهد البطريك سبريشوع الخامس (١٢٢٦ ـ ١٢٥٧)، الذي استقبل أوّل الرهبان الدومينيكان، وأرسل سنة ١٢٤٧ موفدًا خاصًّا إلى البابا إينوقنتيُس الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) هو الراهب شمعون الملقّب بـ "عطا" محمّلاً إيّاه رسالة تُعلن صورة إيمانه، وفيها يطلب الإتّحاد مع روما. ولكنّ تلك المحاولة باءت بالفشل. كذلك كان

مصير المحاولة الثانية التي جرت في عهد البطريرك المغوليّ الأصل يهبالاها (١٢٨١ - ١٣١٧) الذي أوفد الراهب برصوما الصينيّ الأصل بالإتفاق مع الأمير المغوليّ أراغون كما جاء أعلاه.

وفيما يعتبر باحثون أنّ محاولات انضمام الكنيسة السريانيّة الشرقيّة قد توقّفت حتّى سنة ١٥٥١[1]، يرى آخرون أنّه قد انضمّ بعض النساطرة في القرن الخامس عشر إلى الكنيسة الرومانيّة بمناسبة انعقاد مجمع فلورنسا (١٤٣٩ ــ ١٤٤٢) فتلقّبوا "بالكلدان"، كما طلب إليهم ذلك البابا أوجانيوس الرابع (١٤٣١ ـ ١٤٤٧)، وعُرفت كنيستهم بالكنيسة الكلدانيّة منذ ذلك التاريخ. ولكنّ هذا الاتّحاد لم يدُم إلاّ مدّة وجيزة، فعادوا إلى النسطوريّة[2]. على أيّ حال فإنّ نشأة الطائفة الكلدانيّة، كما سوف يتبيّن، قد تمّت على مراحل متعدّدة وليس في حقبة واحدة.

سنة ١٥٥١ توفّي البطريرك شمعون السابع، وبما أنّ التقليد، كما سبق أن ذكرنا، كان يقضي بأن تنتقل البطريركيّة بالإرث، وغالبًا لابن أخي البطريرك الأخير، لم يجد معظم الناس في ابن أخ البطريرك الراحل: دنحا[3]، الصفات التي تؤهّله للبطريركيّة. وبينما أصرّ بعض من الأشوريّين على أن يكون دنحا بطريركًا، حمل لقب شمعون الثامن برماما، ظهرت في كنيسة المشرق حركة تهدف إلى تصحيح الأوضاع والقضاء على التدابير التعسّفيّة وإلغاء قانون الوراثة في رئاسة الكنيسة. تزعّم هذه الحركة ثلاثة

---

١ - أبونا، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

٢ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٥٧.

٣ - يرد هذا الإسم في المراجع تارة "دنحا" وطورًا "دنخا"، ويرأينا أنّ دنحا هو الصحيح.

أساقفة، عقدوا اجتماعًا أوّل في "جزيرة إبن عمر"[1] ضمّ قسمًا من الإكليروس والشعب، ثمّ استأنفوا الاجتماع في الموصل مطلع سنة ١٥٥٢، وقرّ رأي المجتمعين على انتخاب رئيس جديد لكنيستهم، وتوجّهت أنظارهم إلى الراهب يوحنّا سولاقا رئيس دير "الربّان هرمزد " في "القوش"* لهذا المنصب الخطير، لِما كان يمتاز به سولاقا من التقوى والعلم والانفتاح. فاستدعاه المجتمعون إلى مدينة الموصل القريبة من الدير حيث ناشدوه قبول هذه المهمّة، فقبلها على مضض[2]. وانتُخب سولاقا بطريركًا لكنيسة ما بين النهرَين، بموجب القوانين المثبّتة في مجامع كنيسة ساليق وطيسفون. وإذ كان سولاقا كاثوليكيًّا، أقرّوا اتّحاد كنيسة ما بين النهرَين بكنيسة روما[3]. وسافر سولاقا إلى الفاتيكان في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٥٢، يرافقه وفد من الأعيان ورجال الدين، وقدّم صورة إيمانه الكاثوليكيّ إلى البابا يوليوس الثالث (١٥٥٠ ـ ١٥٥٥) الذي أمر برسامته أسقفًا من قِبَل ثلاثة كرادلة في ٩ نيسان (إبريل) ١٥٥٣، ثمّ أعلنه بطريركًا على الموصل للكنيسة التي عُرفت بالكلدانيّة[4]، في بازيليك يوحنّا اللاتراني في ٢٨ نيسان (إبريل)، باسم شمعون يوحنّا سولاقا، وقلّده البابا درع الرئاسة المعروف بالباليوم. وهكذا كانت أوّل كنيسة شرقية، بعد الكنيسة المارونيّة، تتّحد بروما بصورة رسميّة.

---

١ ـ جزيرة إبن عُمَر: مدينة في تركيا على نهر دجلة أسّسها الحسن بن عمر بن الخطّاب التغلبي حوالى ٩٦١، وكانت ميناء لأرمينيا تنقل منها صادراتها من العسل والزبد والبندق واللوز والفستق إلى الموصل.

٢ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٥٨.

٤ ـ أُطلق إسم بلاد الكلدانيّين خطأً على بلاد ما بين النهرَين بأسرها، وقد عُرفت بهذا الإسم في الألف الأوّل ق.م. المنطقة الغربيّة من الخليج العربيّ جنوب العراق.

عاد البطريرك الجديد إلى بلاده في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٥٣، مصطحبًا معه أشخاصًا يساعدونه في نشر التعاليم الصحيحة في بلاده، وجعل مقرّه في مدينة آمد[١]، وباشر على الفور بتنظيم جماعته الكاثوليكيّة، فرسم خمسة أساقفة لكلٍّ من: آمد، والجزيرة وماردين، وسعرت، وحسن كيفا، وثلاثة آخرين، مثبّتًا بذلك مركزه ومُشجّعًا الكثيرين من محبّي الإتّحاد بكنيسة روما[٢]. وقد أسفرت جهوده عن ازدياد عدد المنتمين إلى كنيسته[٣].

إلاّ أنّ تلك الكنيسة الكلدانيّة الفتيّة لم تتمكّن من الصمود في وجه النظام العثمانيّ الذي حرّضه عليها البطريرك النسطوري شمعون الثامن برماما، فسارع العثمانيّون إلى إلقاء القبض على البطريرك سولاقا وقتلوه في ١٢ كانون الثاني (يناير) سنة ١٥٥٥ بإلقائه في بحيرة صغيرة في الجبال بعد إذاقته مرّ العذاب، فكان أول شهداء الإتّحاد. غير أنّ شمعون الثامن لم يتمكّن من جمع شمل الكنيسة بأجمعها تحت سلطانه، وبقي الفرع الكاثوليكيّ منفصلاً عنه[٤]. فتأصّل العداء بين فرعَي هذه الكنيسة، وكان العثمانيّون يساندون الفرع النسطوريّ، ما اضطرّ البطريركيّة الكلدانيّة، تجنّبًا للاضطهاد، إلى الانتقال من آمد إلى سعرت فإلى أورميا وسلماس في أذربيجان. وخلف سولاقا بطاركة كاثوليك حملوا اسم "شمعون"، لجأوا إلى شمال إيران، ولبثوا متّحدين بكنيسة روما مدّة قرن كامل، إلى أنْ عاد البطريرك شمعون الثالث عشر (١٦٦٢ ـ ١٧٠٠) إلى النسطوريّة. وانتقل مع أتباعه إلى بلدة قوجانس (كوتشانس)

---

١ ـ آمد: هي ديار بكر في العراق.

٢ ـ بداويد، مرجع سابق، ص ١٨٢.

٣ ـ أبونا، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

٤ ـ بداويد، مرجع سابق، ص ١٨٢.

شرقيّ تركيا في جبال كردستان حيث بقي الكرسيّ النسطوريّ، أو الأشوريّ، حتّى الحرب العالميّة الأولى. واضطرّ أحفاد هؤلاء في نهاية الحرب العالميّة الأولى إلى ترك مناطقهم لتورّطهم مع الروس ضدّ الأتراك، فلجأوا آخر الأمر إلى العراق ورُحّل قسم منهم إلى منطقة الخابور الأعلى في الجزيرة ـ سوريا. وكانوا قد تخلّصوا من اسمهم القديم "النساطرة" فأُطلق عليهم اسم "الأشوريّين" ليتميّزوا عن الكلدان الكاثوليك، واتّخذوا مؤخّرًا إسمًا رسميًّا لكنيستهم هو "كنيسة الشرق الأشوريّة"[1].

أمّا بطاركة النساطرة، خلفاء "شمعون الثامن دنحا" فقد حملوا اسم إيليّا، وأقاموا بالموصل، وقامت بينهم وبين روما في القرن السابع عشر علاقات متقطّعة سطحيّة لم تُسفر عن اتّحاد دينيّ[2]. وينبئنا بعض الباحثين أنّ الأسقف ليورناردو هابيل الذي حضر إلى المنطقة قبل نهاية القرن السادس عشر[3] قد اتّصل ببطريرك النساطرة إيليّا السابع[4]، وحرّضه على الاتّحاد بالكنيسة الرومانيّة. فكتب البطريرك إلى الحبر الأعظم كتابًا عبّر له فيه عن إيمانه، وجرت بينه وبين روما مراسلات كثيرة[5].

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٥٨، ٣٦٤.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة: ص ٣٥٨.

٣ ـ حضر الأسقف ليونار دو هابيل من روما إلى الشرق بناء على طلب قدّمه بطريرك السريان الغربيّين نعمة اللّه أصفر إلى البابا غريغوريُس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥) ليتّصل بخلفه البطريرك داود شاه (١٥٧٦ ـ ١٥٩١) بغية الاتّحاد مع الكنيسة الرومانيّة.

٤ ـ لم تمدّنا المصادر التي بين أيدينا عن تاريخ عهد البطريرك النسطوريّ إيليّا السابع، ولكنّ عهد إيليّا الخامس قد امتدّ بين ١٥٠٢ و١٥٠٤، وعهد إيليّا التاسع مروجين بين ١٦٦٠ و١٧٠٠، والقاصد البابويّ ليونار دو قد حضر إلى المنطقة في عهد البطريرك المونوفيزيّ داود شاه (١٥٧٦ ـ ١٥٩١)، ما من شأنه أن يفيد عن أنّ ذلك الاتّصال قد حصل قبل نهاية القرن السادس عشر.

٥ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص٢٨٩.

ويبدو أنّ الاتّصال بين الكلدان وروما لم ينقطع. وقد قام به هذه المرّة يوسف أسقف ديار بكر[1] السريانيّ الشرقيّ الذي اعتنق الكثلكة سنة ١٦٧٢، وتمكّن، ويا للغرابة، من أن يحظى من السلطان العثمانيّ بفرمان يقرّه بطريركًا على ديار بكر وماردين وتوابعهما مستقلاً عن سلطة البطريرك النسطوريّ[2]. ومنح البابا إينوقنتيُس الحادي عشر (١٦٧٦ - ١٦٨٩) هذا البطريرك الذي عُرف باسم يوسف الأوّل سنة ١٦٨٣ لقب بطريرك الكلدان[3]. وكان هذا البطريرك قد ذهب إلى روما وبلدان أوروبيّة أخرى آملاً بالحصول على مساعدات كانت كنيسته بأمسّ الحاجة إليها، ولكنّه لم يتلقّ سوى مبالغ زهيدة[4]. وكانت المتاعب قد أثّرت في البطريرك تأثيرًا بليغًا، فاستقال وسافر إلى روما، بعد أن عيّن خلفًا له بصفة بطريرك، المطران يوسف صليبا، فاتّخذ اسم يوسف الثاني[5]، واعترفت به روما سنة ١٦٩٦ بطريركًا للكنيسة

---

١ - يذكر "أبونا، ص٢٢٧، أنّ الكثلكة كانت قد تأصّلت في ديار بكر بهمّة المرسَلين الكبّوشيّين وغيرهم الذين استطاعوا أن يقنعوا الكثيرين من النساطرة بالانضمام إلى الوحدة مع روما. وكان يوسف مطران ديار بكر نفسه من الذين انضمّوا إلى الوحدة.

٢ - يذكر "أبونا، ص٢٢٧، أنّ البطريرك النسطوريّ إيليّا التاسع مروجين (١٦٦٠ - ١٧٠٠) كان واقفًا بالمرصاد لهذه الحركة، فدبّر مع "المتسلّم" العثمانيّ الأمر إلى أن زجّ البطريرك يوسف في السجن، وأخضعه لاستنطاقات عدّة، لكنّ "المتسلّم" اقتنع أخيرًا بصدقه ونزاهته، فأطلق سراحه، واعترف بسلطته على ماردين وديار بكر، وأعلن استقلاله عن البطريرك النسطوريّ. لكنّ متسلّمًا جديدًا ألقى بيوسف في السجن، وهناك أصابه من التعذيب ما يعجز اللسان عن وصفه، حتّى لُقّب بالبطريرك الشهيد، ولدى خروجه من السجن تلقّى تهاني البابا اقليمُس العاشر سنة ١٦٧٣؛ طالع ما كتبه عنه ألبير لاميار بالألمانيّة: شهيد الاتّحاد مع روما، يوسف الأوّل بطريرك الكلدان (لوزون،١٩٦٦).

٣ - بداويد، مرجع سابق، ص ١٨٣؛ قابل: أبونا، مرجع سابق، ص٢٢٧، الذي جعل هذا التاريخ سنة ١٦٨١.

٤ - أبونا، مرجع سابق، ص٢٢٧.

٥ - **يوسف الثاني صليبا آل معروف** (١٦٦٧ - ١٧١٢) بطريرك كلدانيّ ١٦٩١ حتّى وفاته، وُلد في تلكيف التابعة للموصل، قصد ديار بكر منذ صباه والتحق ببطريركها يوسف الأوّل الذي رسمه شمّاسًا ثمّ كاهنًا، رقّاه إلى الدرجة الأسقفيّة وعيّنه معاونًا له ١٦٩١، عيّنه خلفًا له واستقال لشدّة ما أساه وذهب إلى روما، أبدى يوسف الثاني نشاطًا كبيرًا في حقلَي الإدارة والأدب، أجرى إصلاحات كبيرة في الكتب الطقسيّة واستحدث فروضًا لأعياد لم تكن موجودة لدى الشرقيّين ونقّح صلوات الأعياد الأخرى ووضع كتبًا كثيرة لقيت إقبالاً شديدًا في عصره كانت خير وسيلة لدعم الإيمان وتثقيف الشعب المسيحيّ، لم تخلُ حياته من محن واضطهادات من قبل الفئة المناوئة حتّى رغب في أن ينعزل في لبنان فرفضت روما طلبه، مات بداء الطاعون في ٢ حزيران (يونيو) ١٧١٢.

الكلدانيّة[١]؛ ثم خلفه البطريرك يوسف الثالث[٢] الذي عقد مع البطريرك النسطوريّ اتّفاقًا سلّم الأخير بموجبه ابرشيتَي الموصل وحلب، واحتفظ يوسف بديار بكر وماردين[٣]، وقد أقرّ الباب العالي هذا الإتّفاق[٤]. فعانى الكاثوليك الكلدان في مدينتَي الموصل وحلب صعوبات جمّة في ما يتعلّق بممارسة شعائر ديانتهم. وغادر البطريرك يوسف الثالث الشرق وسافر إلى أوروبّا لجمع التبرّعات. وطالت غيبته فتذمّر أبناء الطائفة. فألغت روما هذا التعيين، وتوفّي البطريرك سنة ١٧٥٧، ولم يكن للطائفة الكلدانيّة إلاّ أسقف واحد، وقد بلغ الخامسة والتسعين من العمر، فانتخب المؤمنون خلفًا له لعازر هنديّ[٥]،

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

٢ ـ **يوسف الثالث طيموثاوس مروجين**: بطريرك كلدانيّ ١٧١٢ ـ ١٧٥٧ خلفًا لمعلّمه يوسف الثاني، كان مطرانًا على ماردين منذ ١٧٩٦، أعرب البطريرك يوسف الثاني قبل وفاته عن رغبته في أن يخلفه، انتُخب بالطرق القانونيّة ونال تأييد روما ١٧١٤، تعرّض لمضايقات النساطرة لكنّه تمكّن من استمالة أكثريّة المؤمنين فأعاد الكثيرين إلى الوحدة مع روما خاصّة بعد زيارته للموصل ١٧٢٨، سافر إلى روما والبلدان الأوروبيّة لطلب المعونة ومكث في عاصمة الكثلكة ١٧٣٥ ـ ١٧٤١ ثمّ عاد إلى بلاده.

٣ ـ سلسل الأب إسحق أرملة في كتابه "القصارى في نكبات النصارى" ص ٣٤ ـ ٤٤ أساقفة ماردين الكلدان على الشكل التالي: عُرفت لذلك الكثلكة في ماردين بمساعي البطريرك يوحنّا شمعون الثاني الذي رسم للأبرشيّة مطرانًا يُقال له حننيشوع (١٥٥٣ ـــ ١٥٨٤) خلفه يعقوب (ت١٦١٥)، فيوحنّا (ت١٦٤١)، فيوسف (ت١٦٧٨)، فشمعون (ت١٦٩٥)، فطيمثاوس (ت١٧٥٩)، فباسيل حصرو (ت١٧٣٨)، فباسيل الثاني (ت١٧٥٨)، فشمعون الثاني (ت١٧٨٨)، فميخائيل شوريز (ت١٨١٠)، فاغناطيوس دشتو (ت١٨٦٨)، فجبرائيل فرسو (ت١٨٧٣) فطيمثاس عطّار (ت١٨٩١)، فايليّا ملّوس (ت١٩٠٨)، فالسيّد إسرائيل أودو الذي نُصّب مطرانًا لماردين في ١١ أيّار (مايو) ١٩٠٩ وتمّت رسامته في الموصل في ٢٧ شباط ١٩١٠.

٤ ـ خلفيّة هذا الاتّفاق بحسب المراجع الكلدانيّة أنّ نقمة النساطرة قد انهالت على البطريرك الكلدانيّ بعد تمكّنه من استمالة نساطرة الموصل إلى كنيسته، فاستولى النساطرة على الكنيسة وتمكّنوا من إلقائه في السجن بقوّة السلطات الحاكمة، أخيرًا توصّل وكيله في العاصمة العثمانيّة إلى الحصول على فرمان يقضي بهذا الاتّفاق ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٢٨.

٥ ـ **يوسف الرابع لعازر هندي**: بطريرك كلدانيّ ١٧٥٧ ـ ١٧٨١، ذكرت مراجع أخرى أنّ يوسف الثالث هو الذي رسمه خليفة له، ونال تأييد روما ١٧٥٩، سافر إلى روما ١٧٦١ حيث طبع كتاب طقس القدّاس والأناجيل، عاد من روما واستقال ١٧٨١ وسلّم إدارة البطريركيّة إلى ابن أخيه أوغسطينس وهو ما يزال كاهنًا واعتزل في روما حيث توفّي ١٧٩١.

فاتّخذ البطريرك الجديد سنة ١٧٥٩ اسم يوسف الرابع[1]. واستقال من منصبه سنة ١٧٨١ تاركًا تدبير البطريركيّة إلى ابن اخيه أوغسطينُس هندي الذي لم تعترف به روما لأنّه لم يُنتخب بشكل شرعيّ، إلاّ أنّه بقي يدير شؤون الكلدان الكاثوليك في ديار بكر حتّى وفاته، قام أوغسطينُس هندي بإدارة شؤون البطريركيّة وهو كاهن، ثمّ كمطران منذ ١٨٠٤، وكان يمنح نفسه لقب البطريرك ويدعو نفسه يوسف الخامس لكنّ روما لم تمنحه هذا اللقب قط. حيث عيّن البابا بيوس الثامن في ٥ تمّوز (يوليو) ١٨٣٠ الأسقف الموصلي المتكثلك يوحنّا هرمزد بطريركًا ومنحه لقب: بطريرك بابل على الكلدان. وكان يوحنّا هرمزد ابن عمّ البطريرك النسطوريّ إيليّا الثالث عشر، وقد جعل الموصل مقرّ الكرسيّ البطريركيّ، وتوفّي عام ١٨٣٨ لتستمرّ من بعده سلسلة البطاركة الكلدان الكاثوليك إلى اليوم[2].

وقد ردّ باحثون سبب عدم اعتراف البابا بأوغسطينُس هندي مدبّرًا على الطائفة الكلدانيّة، إلى أنّ البطريركَين النسطوريَّين في كردستان والعراق، كانا قد أظهرا رغبتهما في الاتّحاد بالكنيسة الرومانيّة. ولم يكن بوسع الحبر الأعظم أن يعترف برئيس ثالث على طائفة ضئيلة العدد. واكتفى بطريرك كوتشانس في كردستان بإبداء ميوله الكاثوليكيّة دون أن يحقّقها في الواقع. أمّا بطريرك الموصل إيليّا الثاني عشر (١٧٢٢ ـ ١٧٧٢) فقد أراد أن يتّحد بالكنيسة الرومانيّة ولكنّه لم يتمكّن من تحقيق رغبته. وخلفه إيليّا الثالث عشر (١٧٧٨ ـ ١٨٠٤) وكان نسطوريًّا، وكان ابن عمّه يوحنّا هرمزد قد نال الدرجة الأسقفيّة وهو صغير السنّ، فاعتنق المذهب الكاثوليكيّ.

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

٢ ـ بداويد، مرجع سابق، ص ١٨٣.

ولكنّ روما لم تعترف به بطريركًا إكرامًا للبطريرك إيليّا الثالث عشر، بل أقرّته متروبوليتًا على الموصل. وبقي أوغسطينُس هندي في ديار بكر يدير شؤون الكاثوليك. وكان يوحنّا هرمزد وأوغسطينُس هندي يطمحان كلاهما إلى الرئاسة العليا على الكلدان الكاثوليك. وتوفّي البطريرك إيليّا الثالث عشر النسطوريّ عام ١٨٠٤، فلم يخلفه أحد إذ كان يوحنّا هرمزد مقيمًا بالموصل. ثمّ توفّي أوغسطينُس هندي سنة ١٨٢٨، فعيّن البابا بيوس الثامن في ٥ تمّوز (يوليو) ١٨٣٠ المطران يوحنّا هرمزد بطريركًا على الكلدان ومنحه لقب "بطريرك بابل" فجعل الموصل مقرّ بطريركيّته، ولم يعد له منافس نسطوريّ إلاّ بطريرك كوتشانس في كردستان. وتوفّي عام ١٨٣٨ وارتقى بعده السدّة البطريركيّة المطران نقولا زيّا في ٢٧ نيسان ١٨٤٠، وكثرت المشاكل في عهده، فاستقال وسافر إلى العجم، وتوفّي سنة ١٨٥٥[1].

فلمّا توفّي يوحنّا هرمزد في سنة ١٨٣٨، عيّنت روما خلفًا له نيقولاوس زيعا مطران سلماس[2]، وهو أحد خرّيجي كليّة انتشار الإيمان، وأيّدته في ٢٧ نيسان (إبريل) ١٨٤٠. إلاّ أنّ البطريرك الجديد لقي من الصعوبات والمقاومات ما دفعه إلى الاستقالة والاعتزال في أبرشيّته القديمة سَلماس حيث توفّي سنة ١٨٥٥. وفي مدّة شغور الكرسيّ البطريركيّ جرّاء تلك الاستقالة عيّنت روما يوسف أودو مدبّرًا بطريركيًّا سنة ١٨٤٧، ثمّ اختاره السينودس الكلدانيّ بطريركًا باسم يوسف السادس أودو في نهاية سنة ١٨٤٧. وكان عهد هذا الأخير طويلاً (١٨٤٧ ـ ١٨٧٨) وحافلاً بالأعمال الجليلة

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص٣٥٩ ـ ٣٦٠.

٢ ـ سلماس: منطقة في أذربيجان شمال غربي بحيرة أورميا، فيها قرى كان يسكنها السريان والأرمن والكلدان واليهود مع أكثريّة من المسلمين الشيعة.

وبالصعوبات والمشاكل أيضًا[1]، وانضمّ في عهده كثير من النساطرة إلى الكنيسة الكلدانيّة[2]. وقد ظهرت الصعوبات الأولى عندما طالب كلدان ملَبار[3] بإلحاقهم بالطريركيّة البابليّة وبتعيين رؤساء لهم من طقسهم، فدارت مفاوضات عسيرة أدّت إلى خلافات طويلة بين البطريرك ودوائر الفاتيكان[4]، إلى أن جاءت مبادرات جريئة من قِبَل البطريرك في شأن رسامة أساقفة دون أن يستأذن الحبر الأعظم الرومانيّ، ما زاد العلاقات توتّرًا. وكاد البطريرك أن يُرشق بالحرم جرّاء تصرّفاته وخاصّة بسبب موقفه من مقرّرات المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الأوّل[5]، وقد قام مشاغبون بدور سيّء في دفع البطريرك أودو إلى التصلّب في موقفه[6]. وفي ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٧٠، ألقى البطريرك "أودو" خطابًا تكلّم فيه عن العلاقة بين روما والشرق، وشدّد على أنّها "علاقة دينيّة، لا تهذيبيّة". ورفض التنازل عن حقوق الطقوس الشرقيّة وعوائدها. وقد أحدث الخطاب ضجّة كبرى، وأثار الأكثريّة المحافظة المتمسّكة بأوليّة البابا وعصمته بحسب المفهوم الرومانيّ. كما اغتاظ البابا واستدعى البطريرك الكلدانيّ، ووجّه إليه كلامًا قاسيًا نهرًا وتأنيبًا، وأجبره على الخضوع لكلّ ما فرضته

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٠.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

٣ ـ ملَبار أو ملابار: مقاطعة تقع الساحل الجنوبيّ الغربيّ للهند، تمتدّ من جوا إلى الطرف الجنوبيّ لشبه الجزيرة عند رأس كمورين، تحفّ بها منطقة خصبة؛ راجع كنيسة السريان الملَبار في هذا الكتاب.

٤ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

٥ ـ **المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الأوّل**: مجمع مسكونيّ عُقد في روما ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠، دعا إليه وترأسه بيوس التاسع، درس قضايا الإيمان وحدّد عقيدة العصمة البابويّة.

٦ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٠.

البراءة الرسوليّة REVERSURUS، الصادرة بتاريخ ١٢ تمّوز (يوليو) عام ١٨٦٧، الموجّهة إلى الأرمن، والتي سمحت لكرسي روما بالتدخّل مباشرة بتعيين البطاركة والأساقفة[١].

أمام هذا الواقع، عمّت الفوضى والانشقاق في صفوف أبناء الرعيّة، من مؤيّدين لروما ومناوئين لها[٢]. إلاّ أنّ البطريرك أبدى أخيرًا خضوعه الكامل لمقرّرات روما في الأوّل من آذار (مارس) ١٨٧٧، عبر كتاب وجّهه إلى الحبر الأعظم، أبدى له فيه خضوعه التام لأوامره ورغباته، أجابه البابا عليه في ٩ حزيران (يونيو) من السنة نفسها، بكتاب ملؤه الحنان والمودّة[٣]. وتراجع المناوئون الآخرون أيضًا عن مواقفهم السلبيّة شيئًا فشيئًا، إلى أن بطلت تلك الحركة التي كانت تهدّد كنيسة المشرق الكلدانيّة بالانشقاق. وتوفّي البطريرك يوسف السادس أودو في ١٤ آذار (مارس) ١٨٧٨ بعد أن قام بأعمال جليلة ومشاريع كبيرة لخير كنيسته، منها إنشاء معهد كهنوتيّ بطريركيّ في الموصل سنة ١٨٦٦[٤]. وقيل إنّه عندما كان على فراش النزاع، كان يعبّر عن تعلّقه الشديد بالكنيسة الرومانيّة. وقد أهدى إلى البابا لاون الثالث عشر أجمل خواتمه البطريركيّة[٥].

---

١ ـ كبكب د. وسام، (أستاذ تاريخ الكنيسة في معهد القدّيس بولس في حريصا)، كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك، في كتاب: تاريخ الكنيسة، دار المشرق، ط٢ (بيروت،١٩٩٧) ص٧٢.

٢ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٠.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

٤ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٠.

٥ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١.

خلف أودو بطريركًا للكنيسة الكلدانيّة (١٨٧٨ ـ ١٨٩٤) مطران الجزيرة، إيليّا بطرس عبو اليونان، المولود سنة ١٨٤٠، الذي انتخبه السينودس سنة ١٨٧٨ وأيّدته روما سنة ١٨٧٩[1]. وقد ساد في عهده السلام في الكنيسة الكلدانيّة بفضل وداعته ومحبّته. ولولا تدخّل البروتستانت لكان ضمّ إلى الكثلكة البطريرك النسطوريّ. وفي أيّام بطريركيّته أنشأ الآباء الدومينيكان سنة ١٨٨٢ مدرسة القدّيس يوحنّا الإكليريكيّة في الموصل للكلدان والسريان، وقد تخرّج منها كثيرون امتازوا بعلمهم وفضيلتهم[2]. وفي السنة ذاتها استأنف المعهد الكهنوتيّ البطريركيّ نشاطه بعد توقّفه منذ سنة ١٨٧٣ لأسباب طارئة. وتوفّي البطريرك إيليّا اليونان في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٨٩٤ بحمّى التيفوئيد[3].

خلف اليونان بانتخاب السينودس الكلدانيّ في ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٤ عبد يشوع الخامس خيّاط الذي نال التأييد في ٢٨ آذار (مارس) ١٨٩٥، وهو، كسلفه، من تلامذة كليّة انتشار الإيمان، وكان ضليعًا باللغات والآداب السريانيّة، وقام بنشاط كبير في تنقيح وطبع الكثير من الكتب الطقسيّة في مطبعة الآباء الدومينيكان في الموصل. إلاّ أنّ عهده كان قصيرًا إذ توفّي في بغداد سنة ١٨٩٩، ليخلفه بانتخاب السينودس في ٩ تمّوز (يوليو) ١٩٠٠ البطريرك يوسف عمّانوئيل الثاني توما (١٩٠٠ ـ ١٩٤٧) وأيّده البابا لاون الثالث عشر في ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٠[4].

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٢.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص٣٦١.

٣ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٢.

٤ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٢.

وُلد عمّانوئيل في بلدة القوش من لواء الموصل في ٨ آب (أغسطس) ١٨٥٢، أُرسل منذ صغره إلى مدرسة الآباء اليسوعيّين في غزير قرب بيروت، وسيم كاهنًا في ١٠ تمّوز (يوليو) ١٨٧٩، وأضحى مدير المدرسة الإكليريكيّة البطريركيّة الكلدانيّة في الموصل. وفي ٢٤ تمّوز (يوليو) ١٨٩٢ قبِل الرسامة الأسقفيّة على مدينة سعرت، فبنى فيها كنيسة جميلة[١]. وقد زخر عهد بطريركيّته الطويل الذي دام ٤٧ سنة بالنشاطات والأعمال الجليلة. بنى خلالها عشرات الكنائس والمدارس، وجذب إلى الكنيسة الكاثوليكيّة عدّة أساقفة وكهنة وخلقًا كثيرًا من النساطرة، وكان الحبر الأعظم قد عيّنه بإنعام خاصّ قاصدًا رسوليًّا عليهم. وكان البطريرك يوسف عمّانوئيل الثاني توما كثير التعبّد لمريم العذراء، وفي عهده طُبعت عشرات الكتب الكلدانيّة الطقسيّة والعلميّة[٢]. وعاصر الحربَين العالميّتَين وشاهد مآسي شعبه خلال الحرب الأولى حيث تعرّضت رعيّته للمجازر والتشريد كما ذكرنا آنفًا. وتلاشت أبرشيّات عديدة في تركيا. وقد لاقى المهاجرون القادمون إلى العراق كلّ عون ومساعدة من أبيهم البطريرك الذي لم يتردّد حتّى في بيع أثاث الكنائس والأواني المقدّسة في سبيل إطعام الجائعين والذود عنهم بجميع الوسائل. وكانت له مواقف وطنيّة مشهود لها. ولمّا جاءت الحرب العالميّة الثانية كان هذا البطريرك قد بلغ من العمر عتيًّا ووهنت قواه. ومع ذلك فقد بذل كلّ ما بوسعه لمساعدة الناس وللمحافظة على كيان الكنيسة التي كان لها خير ممثّل لدى السلطات المحليّة والأجنبيّة. إلى أن فاضت روحه في الموصل بتاريخ ٢١ تمّوز (يوليو) ١٩٤٧[٣].

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص٣٦٢.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص٣٦١.

٣ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٢؛ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص٣٦١.

خلف البطريرك عمّانوئيل الثاني توما بطريركًا للكنيسة الكلدانيّة في السنة نفسها البطريرك يوسف السابع غنيمة (١٩٤٧ ـ ١٩٥٨) الذي كان من تلامذة معهد مار يوحنّا الحبيب في الموصل. وهو وُلد في الموصل سنة ١٨٨١، ودرس في مدرسة الآباء الدومينيكان في المدينة نفسها قبل أن ينتقل إلى إكليريكيّة مار يوحنّا الحبيب للآباء أنفسهم، قبل درجة الكهنوت في ١٥ أيّار (مايو) ١٩٠٤، عيّنه البطريرك عمّانوئيل الثاني مديرًا للمدرسة الإكليريكيّة البطريركيّة في الموصل، وبقي فيها حتّى سنة ١٩١٨، رُقّي إلى وظيفة وكيل عام على الأبرشيّة البطريركيّة، ثمّ نال الدرجة الأسقفيّة سنة ١٩٢٥، عيّنه البطريرك عمّانوئيل معاونًا له ١٩٢٥ ـ ١٩٤٧، انتخبه الحبر الأعظم مدبّرًا رسوليًّا على كنيسة الكلدان سنة ١٩٤٧، انتخبه الأساقفة بطريركًا في ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧. وقد اشتهر البطريرك يوسف السابع غنيمة بتقواه المثاليّة وعلمه الفيّاض وعبادته السامية لمريم العذراء. ورسم عدّة أساقفة وعشرات الكهنة والشمامسة، وفي عهده شُيّدت كنائس ومدارس عدّة[1]. وكان ذا علم غزير وثقافة راقية، له مواقف خطابيّة شهيرة. وكان مثل سلفه عضوًا في مجلس الأعيان العراقيّ. وهو الذي نقل كرسي البطريركيّة من الموصل إلى بغداد ليكون على صلة أوثق بسلطات البلاد في سبيل التضامن معها في بناء الوطن. وقد توفّي في ٨ تمّوز (يوليو) ١٩٥٨، قبيل قيام الثورة العراقيّة التي أطاحت في ١٤ تمّوز (يوليو) ١٩٥٨ بالنظام الملكيّ، وأعلنت النظام الجمهوريّ في العراق[2].

وبالرغم من الظروف العسيرة في البلاد، فقد اجتمع السينودس الكلدانيّ في خريف ١٩٥٨ وانتخب البطريرك بولس الثاني شيخو (١٩٥٨ ـ ١٩٨٩) الذي تمّ تنصيبه في

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٦٢.

٢ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٢.

كانون الأوّل (ديسمبر) من السنة ذاتها[1]. وهو الآخر من مواليد القوش من لواء الموصل عام ١٩٠٦، درس في إكليريكيّة الموصل وفي المعهد الشرقيّ بروما، ولمّا عاد إلى العراق عُيّن مدبّرًا للإكليريكيّة البطريركيّة، وأصبح سنة ١٩٤٧ أوّل أسقف لأبرشيّة "عقرا" التي أُعيد تجديدها، فاكتسب فيها محبّة الجميع، وانتُخب سنة ١٩٥٧ أسقفًا لمدينة حلب خلفًا للمطران يوسف نعمو الذي نُقل إلى بيروت إبّان تقسيم أبرشيّة سورية ولبنان إلى قسمَين، قبل أن يُعهد إليه المنصب البطريركيّ للكنيسة الكلدانيّة سنة ١٩٥٨[2]. وقد اهتم هذا البطريرك ببناء العديد من الكنائس خاصّة في بغداد التي توافد إليها أعداد كبيرة من أبناء الكنيسة المشرقيّة النازحين من المناطق الشماليّة جرّاء ثورة الأكراد والاضطرابات الناجمة عنها. وقد اشتهر البطريرك شيخو بقداسة سيرته وبتجرّده وعطفه على الفقراء والمعوزين، إلى أن وافته المنيّة في ١٣ نيسان (إبريل) ١٩٨٩[3]. فخلفه في السنة نفسها البطريرك الحاليّ مار روفائيل الأوّل بيداويد، الذي كان أسقفًا على بيروت. وانتخبه السينودوس بطريركًا في أيّار (مايو) ١٩٨٩[4]. وقد عكف بيداويد على تنظيم شؤون الكنيسة الكلدانيّة وإعطائها وهجًا جديدًا[5]. وطبّق فيها القوانين الكنسيّة وعمل على إعادة النظر في بنائيّة كنيستها وتنظيماتها في سبيل إصلاح شامل على ضوء مقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني[6].

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٢.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٦٣.

٣ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٢؛ يتيم وديك، مرجع سابق، ص ٣٦٣.

٤ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص ٣٦٣.

٥ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٢.

٦ ـ **المجمع الفاتيكانيّ الثاني**: مجمع مسكونيّ عُقد في روما ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥، دعا إليه وافتتحه يوحنّا الثالث والعشرون واختتمه بولس السادس، تخلّلته أربع جلسات، درس أوضاع الكنيسة تجاه تحوّلات العصر وطرق تحديثها وإصلاحها ووضع توجيهات لتحقيق الوحدة المسيحيّة، حضره مراقبون من جميع الكنائس ومن العلمانيّين.

كَنيسَــةُ الكَلــدَان

فِي العُهودِ الأخِيرة

قبل نهاية العثمانيّين كان الكلدان، الذين يعدّون اليوم حوالى نصف مليون نسمة أكثرهم في العراق، قد توزّعوا على أنحاء عدّة، فتبع بطريركيّتهم في بغداد تسع أبرشيّات كبرى في العراق، وثلاث في إيران، وواحدة في تركيا، بعد أن أُلغيت ثلاث إثر المذابح التي تعرّضوا لها خلال الحرب العالميّة الأولى، وواحدة في حلب، وواحدة في مصر، إضافة إلى وجود كلدانيّ في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وأستراليا، والسويد، وفرنسا، وروما، والقدس، ولبنان. وكان الكلدان قد أسّسوا لهم رهبانيّة على اسم القدّيس هرمزد، جدّدت سنة ١٨٠٨ على يد جبرائيل دنبو الماردينيّ الذي ترهّب لدى الرهبان الأنطونيّين الموارنة في دير مار شعيا في لبنان، ثمّ انتقل إلى العراق لبعث الحياة الرهبانيّة بين شباب الكنيسة الكلدانيّة. كما أسّس الكلدان لاحقًا رهبانيّتَين للراهبات: راهبات القلب الأقدس (١٩١٥)، وراهبات الكلدان بنات مريم المحبول بها بلا دنس (١٩٣٢).

وكان لكنيسة المشرق مدارس خاصّة واصلت مسيرتها في مختلف العهود الأخيرة التي حكمت بلاد ما بين النهرَين. وكانت هذه المدارس تتبع مناهج الدولة، وتهتمّ بتعليم اللغة السريانيّة والدين المسيحيّ. إلاّ أنّها أُمّمت في سبعينات القرن العشرين في العراق. أمّا معهد شمعون الصفا الكهنوتيّ فقد استمرّ على تثقيف الإكليروس في الموصل أوّلاً، ثمّ نُقل إلى منطقة الدورة (ميكانيك) في بغداد. وفي السنوات الأخيرة جرت محاولات تهدف إلى جعل هذا المعهد كليّة لاهوتيّة للعلوم الكنسيّة باسم كليّة بابل. وما تزال الجهود تُبذل في سبيل الحصول على موافقة السلطات الرسميّة من أجل تحقيق ذلك. ويتلقّى اليوم العلم في كليّة بابل الكنسيّة تلامذة المعهد الكهنوتيّ مع

فرقة صغيرة من أبناء الكنيسة الأشـوريّة وعـدد صغير مـن العلمـانيّين الذيـن يتهيّـأون للدرجات المقدّسة أو للرسالة في الخورنات. كما أنّ كنيسة المشرق ترسـل، بيـن وقـت وآخر، بعضًا من أبنائها التلاميذ أو الكهنة للتخصّص في جامعات الغرب، وخاصّة فـي روما. أمّا ما تبقّى من الأديار العديدة المنتشرة في ما بين النهرَيـن فينحصـر الآن فـي مؤسّسة رهبانيّة رجّاليّة واحدة هي تلك التي أنشأها الربان هرمزد في الدير المعروف باسمه بالقرب من القوش شمالي العراق. وهذه الرهبانيّة تواصـل مسيرتها منذ القـرن السابع، بالرغم ممّا أصابها من النوائـب خـلال مسيرتها الطويلـة عبـر الأجيـال. ولقـد اضطـرّ رهبانهـا مـرّات كثـيرة إلـى تـرك ديرهـم تحـت ضغـوط الاضطرابـات والاضطهادات ثمّ العودة إليه بعد مرور العاصفة. إلاّ أنّ الحياة الرهبانيّـة كـانت بـأمسّ الحاجة إلى إصلاح يعيدها إلى أصالتها الروحيّة الحقيقيّة. وقد تمّ هذا الإصلاح عن يـد الأنبا جبرائيل دنبو الماردينـي الـذي أقبل إلـى البـلاد وتولّـى إدارة الديـر سنة ١٨٠٨، واستطاع، رغم الظروف العسيرة، أن ينعش الرهبانيّة الكلدانيّة ويعيد تنظيمها وأن ينال تثبيت قوانينها في روما. ولكنّه استُشهد سـنة ١٨٣٢ مـع ثلاثـة مـن رهبانـه فـي خـلال موجة عنف هبّـت مـن الجبـال الشـماليّة، واستمرّت الرهبانيّـة وازداد عـدد المنضمّيـن إليها، حتّى اضطرّوا إلى إنشاء دير آخر في سهل القوش أُطلق عليه اسـم "ديـر السيّدة حافظة الزرع". وقد أصبح هذا الدير وما يزال مركز رئاسة الرهبانيّـة الكلدانيّة. وفـي سنة ١٨٦٢ اعتُبر ديـر مـار كوركيـس القريـب مـن الموصـل ديـرًا قانونيًّـا للرهبانيّـة الكلدانيّة الأنطونيّـة الهرمزديّـة. وفـي سـنة ١٩٦٩ شـيّد ديـر آخـر للكلدان فـي منطقـة الدورة في بغداد، يضمّ المبتدئين والمسؤولين عن تنشـئتهم وتثقيفهم. وللرهبانيّـة أيضًـا دار فـي رومـا لاستقبال الرهبـان الذيـن يقصـدون عاصمـة الكثلكـة لغـرض الـدرس والتخصّص. وهناك ثلاثة أديـرة أخـرى فـي منطقـة الموصـل قـد أُعيد ترميمها علـى

دفعات متتالية، وهي: دير مار ميخائيل رفيق الملائكة، ودير مار إيليّا الحيري أو دير سعيد القريبَان من الموصل، ودير مار ابراهيم القريب من بلدة باطناي، إلاّ أنّ هذه الأديرة الثلاثة الأخيرة خالية من الرهبان. وللكلدان أيضًا رهبانيّتان للنساء هما: جمعيّة بنات مريم المحبول بها بلا دنس (راهبات الكلدان) وقد أُسّست سنة ١٩٢٢ ومركزها في بغداد، وتعمل راهباتها في حقلَي التعليم والخدمة؛ وجمعيّة القلب الأقدس التي أُسّست سنة ١٩١٥ في أرادن التابعة لأبرشيّة العماديّة، ونُقلت إلى الموصل إثر الظروف الأخيرة التي حلّت بالمنطقة الشماليّة. ولهاتَين الجمعيّتَين فروع في أماكن عديدة من البلاد، ولبنات مريم الكلدانيّات فروع أيضًا خارج البلاد، في روما وفي الولايات المتّحدة الأميركيّة[1].

قدِم الكلدان إلى لبنان على دفعات ابتداءً من العام ١٨٩٥ هربًا من مذابح الأتراك والأكراد في بلاد ما بين النهرَين، مرورًا بالحرب العالميّة الأولى، وصولاً إلى الحرب العالميّة الثانية. وقد ذكر مؤرّخون سريان أنّه كان للكلدان في ماردين، ما عدا كنيسة هرمزد القديمة، كنائس في طبياثا، والقصور، وكفرتوث، وخراب ألما، ودارا، ونصّيبين. ومطرانهم يرعى الكلدان الموجودين في نصّيبين، ومذيات، وكفرجوزه، وويران شهر، ويبلغ عددهم ألفًا وسبعمائة نسمة. وقد جرى لوجهاء هذه الطائفة العزيزة سنة ١٩١٥ من الأحداث الدمويّة ما جرى لغيرهم من النفي والقتل والخسائر. ومن أشراف العيال الكلدانيّة بماردين أسرة شوحا التي عُرفت بغلوّها في الدين الكاثوليكيّ وخسرت زهاء عشرة من رجالها الذين أُلقي القبض عليهم وعلى ثلاثين آخرين من وجهاء طائفتهم وزُجّوا في السجن وسيقوا مع رجال الأرمن

---

١ - أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٦.

والسريان الكاثوليكيّين وقُتلوا لثباتهم في دين أجدادهم. وهدمت الحكومة الناحية الجنوبيّة من الدار الأسقفيّة الكلدانيّة توسيعًا للجادة العموميّة فأضرّ ذلك الكنيسة ضررًا فاحشًا[1].

وإذ أصبح عدد الكلدان في لبنان قرابة العشرة الآف نسمة، عيّنت روما مدبّرًا رسوليًّا لهم سنة ١٩٣٨ ليرعى شؤونهم الدينيّة مع الكلدان في سورية والإسكندرونة. وفي سنة ١٩٥٧ أُسست أوّل أبرشيّة للكلدان في لبنان، ومُنح أسقفها لقب مطران بيروت على الكلدان. وراح إكليريكيّو هذه الكنيسة يتلقّون علومهم مع الموارنة في إكليريكيّة غزير وجامعة الروح القدس الكسليك في لبنان[2].

أمّا اليوم، فمجموع عدد المطارنة والأساقفة الكلدان يبلغ الخمسة عشر، بالإضافة إلى البطريرك. ويقوم نحو ١٢٠ كاهنًا بخدمة جميع أبناء هذه الكنيسة في العراق وبلدان الانتشار، معظمهم من ذوي الثقافة الجيّدة، ومنهم من ذوي الاختصاص في مختلف الحقول العلميّة، الفلسفيّة واللاهوتيّة والتاريخيّة وسواها. وتتعدّد النشاطات في الكنيسة الكلدانيّة وتختلف، فمنها الهادفة إلى تثقيف الإكليروس في المعهد الكهنوتيّ، وغيرها إلى تثقيف المؤمنين بشتّى الوسائل كالدورات اللاهوتيّة والندوات والأخويّات لمختلف الأعمار والدروس الدينيّة في المدارس الرسميّة أو في الخورنات. وللكنيسة مجلّة تصدر في بغداد باسم "بين النهرَين" تنشر مقالات تراثيّة رصينة. ومجلاّت وصحف أخرى في مختلف بلدان الانتشار، ونشرات محليّة على نطاق الأبرشيّات أو الخورنات. وقد وفّق بعض كهنة الكنيسة الكلدانيّة ومؤمنيها إلى نشر نتاجهم الفكريّ،

---

١ ـ أرملة، القصارى في نكبات النصارى، ص ٣٥.

٢ ـ بدلويد، مرجع سابق، ص١٨٧ ـ ١٨٨.

التراثيّ منه والأدبيّ. ويبلغ عدد الكلدان الكلّي في العالم نحو ثلاثة ملايين نسمة، ولكن منهم نحو مليونَين ونصف المليون في الهند (ملَبار) وهم يخضعون لسلطة روما المباشرة[1]. أمّا الكلدان الذين يخضعون لسلطة بطريركيّة بابل الكلدانيّة التي مركزها بغداد فهم الآن نحو ٦٠٠ ألف نسمة، منهم أكثر من ٤٠٠ ألف في العراق، وأغلبهم يسكنون بغداد، وقد نزح العديد منهم إليها من المناطق الشماليّة إثر الاضطرابات التي حدثت فيها. أمّا الباقون فيتوزّعون على المدن والقرى العراقيّة الأخرى. وللكلدان جاليات عديدة خارج القطر العراقيّ، في البلدان العربيّة المجاورة وفي البلدان الأوروبيّة وأميركا وكندا وأستراليا وغيرها. ولقد بدأت هجرتهم إلى تلك البلدان منذ سنين طويلة واشتدّت حركة الهجرة في السنوات الأخيرة، حيث نزحت أعداد كبيرة منهم من بلاد ما بين النهرَين وتوجّهت إلى أوروبّا وأميركا. وغادر معظم كلدان تركيا بلادهم لاجئين خاصّة إلى فرنسا وبلجيكا والسويد وألمانيا وغيرها من البلدان. وأكبر الجاليات الكلدانيّة المهاجرة اليوم هو في الولايات المتّحدة الأميركيّة إذ يبلغ عددها أكثر من ٧٠ ألف نسمة[2].

بينما لخّص باحثون محدثون في شؤون الكنائس الشرقيّة وضع الكنيسة الكلدانيّة اليوم بأنّ لها ١١ أبرشيّة: سبع في العراق، إثنتان في إيران، واحدة في حلب ـ سورية، وواحدة في بيروت ـ لبنان؛ ولها نائب بطريركيّ في كلّ من القدس ومصر واسطنبول؛ ومقرّ الكرسيّ البطريركيّ بغداد؛ ولها الرهبانيّة الأنطونيّة ورهبانيّتان نسائيّتان: الحبل بلا دنس والكاترينات؛ ومدرستان إكليريكيّتان، الواحدة بإدارة الآباء

---

١ ـ راجع كنيسة السريان الملبار في الفصل التالي.

٢ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٤ ـ ٢٣٧.

الدومينيكان تحت حماية القدّيس يوحنّا الحبيب، والثانية بإدارة البطريركيّة الكلدانيّة وكلتاهما في الموصل. وفي طهران مدرسة إكليريكيّة صغرى. ويربو عدد أبناء الطائفة على ٢٠٠ ألف نسمة[1].

كَنيسَةَ الشرق الأشُورِيَّة
فِي العُهودِ الأخِيرَة

إختصر باحثون في شؤون الكنائس الشرقيّة مقدّمة التعريف بوضع كنيسة الشرق الأشوريّة المعاصرة بالقول إنّ النساطرة الذين كانوا متمركزين في جبال كردستان شرقيّ تركيا (كوتشانس) منذ القرن السابع عشر، اضطرّوا في نهاية الحرب العالميّة الأولى إلى ترك مناطقهم لتورّطهم مع الروس ضدّ الأتراك، فلجأوا آخر الأمر إلى العراق ورُحّل قسم منهم إلى منطقة الخابور الأعلى في الجزيرة ـ سوريا. وكانوا قد تخلّصوا من اسمهم القديم "النساطرة" فأُطلق عليهم اسم "الأشوريّين" ليتميّزوا عن الكدان الكاثوليك، واتّخذوا مؤخّرًا اسمًا رسميًّا لكنيستهم هو "كنيسة الشرق الأشوريّة[2]".

ويمكننا، ببعض التوسّع، ملاحظة أنّه بعدما انضمّ قسم من الكنيسة السريانيّة المشرقيّة إلى الوحدة مع روما أواسط القرن السادس عشر، بزعامة البطريرك يوحنّا سولاقا كما سبق التبيان، بقيت الفئة الأخرى تتأرجح بين الإقدام على الوحدة والإحجام عنها، تبعًا للضغوطات السياسيّة التي كانت تتعرّض لها من قِبَل الفئات الحاكمة،

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٦٣.

٢ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص ٣٦٤.

وأحيانًا بسبب تشدّد بعض أبناء هذه الكنيسة في عدم رغبتهم في التخلّي عن بعض معتقداتهم، أو التخلّي عن استقلاليّة كنيستهم والخضوع لبابا روما وكنيستها الجامعة. وكثيرًا ما كانت أسباب الابتعاد عن الانضمام إلى الكنيسة الجامعة حالات سلطويّة داخليّة وتمسّك ببعض التقاليد الموروثة. وقد وجدت هذه الفئة نفسها منعزلة في الجبال الشماليّة، كما سبق وذكرنا، تعاني تعسّف الأكراد خلال قرون طويلة، في حين أنّ الفئة التي اتّحدت مع الكنيسة الرومانيّة انتشرت انتشارًا واسعًا خاصّة في سهل الموصل وفي وادي دجلة وعلى ضفاف بحيرة أورميا في أذربيجان وإيران. ومن المفارقات الغريبة أنّ خلفاء رائد الوحدة مع الكنيسة الرومانيّة، البطريرك يوحنّا سولاقا، قد عادوا إلى مذهبهم القديم وانزووا في منطقة "تياري"، في حين انضمّ خلفاء منافسه النسطوريّ إلى الوحدة، وذلك تحت تأثير المرسَلين الغربيّين إلى دير بكر والموصل. وكان من الصعب على الفئة المعتصمة بالجبال أن تتخلّى عن مفاهيمها القوميّة المتشابكة بالاعتبارات الدينيّة، وبالتالي أن تتساهل في أمر تمزّق صفوفها، خاصّة وأنّها محاطة بشعوب تتربّص الفرص للقضاء عليها، وهم تحديدًا الترك والأكراد. وقد تجلّى ذلك التربّص من خلال المجازر التي أتينا على ذكرها آنفًا والتي ارتكبتها جيوش بدرخان في السنوات ١٨٤٣ ـ ١٨٤٧. وكان بطاركة "قوجانس" مع شعوبهم يعانون العزلة ويعتبرون الوحدة مع روما ضرورة تتيح لهم الحفاظ على حياتهم وكيانهم. وإذا بالبطريرك شمعون السابع عشر يقول للمحيطين به في نزاعه الأخير سنة ١٨٦١: "إذا اضطررتم، للحفاظ على أمّتنا، إلى تغيير مذهبكم فاتّحدوا مع الكاثوليك ولا مع البروتستانت". وقد تذكّر خلفه شمعون الثامن عشر هذه النصيحة سنة ١٨٩١، فالتمس من الدومينيكان في الموصل أن يتوسّطوا له لدى الحبر الأعظم للحصول على مدارس ومساعدات ماديّة وحماية من قنصل فرنسا، أسوة ببقيّة الجماعات المسيحيّة. إلاّ أنّ هذا

البطريرك قد تخلّف عن اللقاء في العماديّة بالبطريرك الكلدانيّ إيليّا عبو اليونان سنة ١٨٩٢، خوفًا من المعارضة التي ثارت ضدّ هذه المبادرة الجريئة في رعيّته نفسها. لكنّ التحرك باتّجاه الوحدة قد استمرّ عند ابنَي أخي البطريرك: إبراهيم أسقف هكاري وأخيه نمرود. وكانت هذه الحركة من القوّة بحيث نرى البابا لاون الثالث عشر يعيّن بطريرك الكلدان عمّانوئيل الثاني توما "وكيلاً عنه في بتّ شؤون العائدين إلى الوحدة" الذين كان عددهم يربو على ٤٠ ألف نسمة. ولم يكن من السهل إيجاد أشخاص من المرسَلين أو غيرهم ممّن لهم الكفاءة لرعاية هذه الأعداد الغفيرة من المؤمنين وتثقيفها. وفي تلك الغضون توفّي البطريرك شمعون الثامن عشر سنة ١٩٠٣، في حين كان ابنا أخيه إبراهيم ونمرود يعقدان المفاوضات بشأن الوحدة في الموصل. فانتهز الحزب المناوئ للوحدة هذه المناسبة وعيّن، عوضًا عن ابراهيم، الوريث الشرعيّ، واحدًا من أبناء عمّه، وهو بنيامين الذي أصبح شمعون التاسع عشر، وهو في التاسعة عشرة من عمره[1]. ويذكر باحثون موثوقون أنّه كان للأموال والمداخلات والضغوطات البريطانيّة (البروتستانتيّة) والروسيّة (الأرثذوكسيّة) دور كبير في إيقاف عجلة الوحدة مع الكرسيّ الرومانيّ. لكنّ همّة المرسَلين لم تفتر، بل فتحوا لهم مراكز كثيرة انطلاقًا من مركزهم الرئيس في قرية "مار ياقو" القريبة من "دهوك" في "أشيثا" قلب المنطقة النسطوريّة. وحينما اندلعت الحرب العالميّة الأولى، تحزّب البطريرك شمعون التاسع عشر لروسيا، وقضى على نمرود وعلى عدد من أفراد أسرته، وقرّر إجلاء رعاياه إلى البلاد الفارسيّة، وبذلك عرّض العديد من قراه للسلب والنهب من قِبَل العشائر الكرديّة.

---

١ ـ نلاحظ هنا أنّ البطريركيّة كانت لا تزال في الكنيسة الأشوريّة خاضعة لنظام الوراثة الذي تحدثنا عنه في سياق البحث عشيّة نشوء الكنيسة الكلدانيّة.

وبعد مجازر سنة ١٩١٥، اجتاز الباقون من المسيحيّين إلى أذربيجان تحت حماية الروس. وفي سنة ١٩١٧ انسحب الروس تاركين المسيحيّين تحت رحمة أعدائهم. وتمكّن قسم منهم من اللجوء إلى روسيا، في حين ذهب القسم الأكبر إلى منطقة ما بين النهرَين المحتلّة من قِبَل الانكليز. فوصل نحو ٦٠ ألفًا منهم إلى "يعقوبة" حيث وُضعوا في مخيّم أُقيم لهم. وقد اغتيل البطريرك شمعون التاسع عشر في البلاد الفارسيّة، فأقاموا خلفًا له أخاه بولس الذي كان عمره ٢٤ سنة، فاتّخذ لنفسه اسم شمعون العشرين. وانتقل إلى الموصل في الوقت الذي كانت فيه معاهدة سايكس ـ بيكو في طريقها إلى التنفيذ، وأظهر ميله إلى الانضمام إلى الوحدة مع روما. وحينما نُفِّذت المعاهدة المذكورة وشملت منطقة الموصل، أُقصي البطريرك عن المدينة، ومات بعد ذلك في مخيّم "يعقوبة" سنة ١٩٢٠ بداء السلّ. فخلفه "إيشاي" باسم شمعون الحادي والعشرين[١]، وهو صبيّ في الثالثة عشرة من عمره. وأُرسل إلى إنكلترا للدراسة، وبقيت إدارة شؤون الكنيسة في أيدي والده وخاصّة عمّته "سورما خانم" أخت البطريركَين بنيامين وبولس. ولدى عودة البطريرك الشاب إلى الموصل سنة ١٩٢٧، وكان قد بلغ العشرين من عمره، اعترفت به الحكومة العراقيّة رئيسًا للنساطرة الباقين في العراق والموجودين في روسيا والهند. ومنذ القرن التاسع عشر دخلت المناطق التي يسكنها النساطرة إرساليّات بروتستانتيّة قادمة من إنكلترا وأميركا. وكان لها تأثير كبير في أبناء الكنيسة النسطوريّة الذين كانوا غالبًا ما يعانون الفقر والجهل، بالإضافة إلى ما كانوا يتعرّضون له من مضايقات على أيدي جيرانهم الأكراد والأتراك. وقد

---

١ ـ ورد في مراجع أخرى باسم شمعون الثالث والعشرين، وأنّه انتُخب عام ١٨٢٠ وعمره ١٢ سنة. ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص٣٦٤.

انضمّ عدد من أفراد هذه الكنيسة إلى مذاهب هؤلاء المرسَلين، ما خلق المزيد من الفوضى والارتباك والتشرذم في تلك الكنيسة. وعجزت سياسة البطريرك الضعيفة عن توحيد كلمة رعاياه. ولمّا أظهر ميله إلى الأنكليكان، نشبت معارضت قويّة داخل إكليروسه، فانضمّ بعضهم إلى طيموتاوس أسقف ملَبار، والتفّ آخرون حول القسّ يوسف الذي أنشأ في الموصل مدرسة معارضة للمدرسة التي أقامها فيها البطريرك وسلّم يوسف مدرسته إلى إدارة المرسَلين البروتستانت[1].

في خضمّ تلك الفوضى، ظهرت في صفوف الأشوريّين سنة ١٩٣٣ إنتفاضة تهدف إلى إقامة نوع من الحكم الذاتيّ. وحاولت قوّاتهم المسلّحة الانضمام إلى إخوتهم في سورية التي كانت يومذاك تحت الانتداب الفرنسيّ. وقد قضت مصالح الدول الكبرى بإحباط تلك الانتفاضة التي جنّد العراق كلّ طاقاته للقضاء عليها. وبعد معارك ضارية دارت بين الثوّار ورجال الحكومة العراقيّة، استطاع الجيش العراقيّ القضاء على الثورة، فقتل أعدادًا كبيرة من مسلّحيها، ثمّ لاحق فلولها في الجبال والقرى حيث لقي الكثير من النساء والأطفال حتفهم، ودُمّرت قراهم وأُحرقت محاصيلهم. ثمّ أُبعد البطريرك شمعون إيشاي إلى قبرص أوّلاً، ومنها إلى لندن حيث مكث مدّة طويلة[2]. وفي سنة ١٩٤٢، بينما كانت الحرب العالميّة الثانية على أشدّها، غادر البطريرك لندن إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، واستقرّ في ولاية سان فرنسيسكو إلى أن اغتيل سنة ١٩٧٥ لأسباب دينيّة وقبليّة كما سيأتي. ولم تمرّ السنوات الأخيرة من حياة

---

١ - أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٧ - ٢٣٩.

٢ - أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٩ - ٢٤٠؛ ذكر يتيم وديك، مرجع سابق، ص٣٦٤ أنّه: لمّا عاد شمعون إيشاي من لندن إلى الشرق لم ينسجم مع إكليروسه وشعبه، وأبعدته الحكومة العراقيّة الملكيّة عام ١٩٣٣، فلجأ إلى قبرص.

البطريرك شمعون إيشاي بغير صعوبات[1]، وكان قد اشترك في مؤتمر نيودلهي لمجلس الكنائس العالميّ عام ١٩٦١، وفي طريق عودته زار بعض مناطق الشرق لتفقّد رعيّته، وأقام أسقفًا في طهران سنة ١٩٦٢ إذ كان الكرسيّ شاغرًا منذ الحرب العالميّة الأولى. فقد ظهرت أزمة جديدة داخل كنيسته سنة ١٩٦٤ إثر القرار الذي اتّخذه هذا البطريرك والقاضي ببعض الإصلاحات الطقسيّة، وبإدخال الحساب الغربيّ في الأعياد الثابتة وفي حساب عيد الفصح[2]، متخلّيًا بذلك عن التقويم اليوليانيّ القديم ومتبنّيًا التقويم الغريغوريّ، تمشّيًا مع معظم الكنائس في العالم، كما شملت الإصلاحات تقليص الصلوات الطقسيّة وتخفيف الأصوام التقليديّة الكثيرة الصارمة. فقاومته فئة من كنيسته، واستقدمت المطران "توما درمو" من الهند إلى بغداد. وبعد أن رسم ثلاثة أساقفة، اجتمع معهم في بغداد سنة ١٩٦٨ واختاروه بطريركًا للمعارضين، وقرّروا عزل البطريرك شمعون إيشاي. ويرئس هذه الفئة الآن منذ ١٩٤٢ مار أدّاي[3]. إلاّ أنّ البطريرك شمعون إيشاي قد استمرّ على رأس كنيسته، وزار العراق سنة ١٩٧١ واستعاد جنسيّته العراقيّة[4]، ولكنّه استقال عام ١٩٧٣ بعد نشوب أزمة حادّة في كنيسته. ثمّ عاد عن استقالته لمّا أحاله السينودوس إلى الحالة العلمانيّة[5]. وحينما صمّم على الزواج سنة ١٩٧٤، أثار بذلك استياء عميقًا في نفوس أبناء كنيسته أدّى إلى اغتياله سنة ١٩٧٥. وقد وضع موته حدًّا للبطريركيّة الوراثيّة في الكنيسة الشرقيّة

---

١ - أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٩ - ٢٤٠.

٢ - يتيم وديك، مرجع سابق، ص ٣٦٤.

٣ - المرجع السابق.

٤ - أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٩ - ٢٤٠.

٥ - يتيم وديك، مرجع سابق، ص٣٦٤.

الأشوريّة، بعد أن استمرّ فيها هذا القانون طوال قرون عديدة[1]. إلاّ أنّه قبل وفاته، كانت الكنيسة الشرقيّة قد انقسمت إلى كنيستَين، إحداهما محافِظة مقرّها في بغداد مع بعض الأساقفة والكهنة، والثانية إصلاحيّة يرئسها بطريرك يقيم في شيكاغو الولايات المتّحدة الأميركيّة، حيث لجأ بضعة آلاف من الأشوريّين، ويساعده أساقفة منتشرون في عدّة بلدان، علمًا بأنّ قسمًا من الأشوريّين في العراق يتبع بطريرك شيكاغو رغم وجود بطريرك أشوريّ في بغداد[2]. وما يزال البطريركان يتقاسمان السلطة على الكنيسة الشرقيّة النسطوريّة.

ذلك أنّه بعد اغتيال البطريرك شمعون إيشاي سنة ١٩٧٥، اجتمع سينودوس الأساقفة في لندن عام ١٩٧٦ وانتخب مار دنحا، أسقف طهران، بطريركًا على رأس "الكنيسة الشرقيّة الأشوريّة". ولم يكن دنحا ينتمي إلى أسرة البطريرك الراحل ولم يأخذ اسم شمعون فسُمّي مار دنحا الرابع. ولم يتمكّن من الإقامة في العراق حيث كان منافسه مار إدّاي، فبقي في طهران[3]، ويقول باحثون معاصرون آخرون أنّه قد جعل مركز بطريركيّته، الموقّت على الأقلّ، في شيكاغو، أمّا مقرّه الرسميّ ففي بغداد[4]. وهو يحاول أن يوحّد شعبه المنتشر في العراق وإيران وسورية وجنوب الهند وبلاد الإغتراب، وأن يفتح كنيسته على سائر الكنائس. وقد اشترك في حفلة تنصيب البابا يوحنّا بولس الثاني وزار رسميًّا روما من ٧ إلى ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤[5].

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠.

٢ ـ KOCHASSARLY KHALIL, *EVENTAIL DES ÉGLISES D'ORIENT*, PP. 23-24.

٣ ـ يتيم وديك، مرجع سابق، ص ٣٦٤.

٤ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٤٠،

٥ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٦٤.

ويتبع هذه الكنيسة اليوم عشر أبرشيّات، منها، إضافة إلى العراق، في كلّ من سوريا وإيران ولبنان وأوروبّا وكندا وأستراليا والهند وأبرشيّتان في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وعدد أساقفة هذه الكنيسة ثمانية بالإضافة إلى البطريرك، ويبلغ عدد كهنتها نحو ٦٧ كاهنًا في مختلف الأقطار، أمّا عدد أتباعها فلا يتجاوز اليوم ٤٠٠ ألف نسمة بحسب بعض الباحثين[١]. بينما ذكرت دراسات أنّ عدد الأشوريّين النساطرة، المقيمين في البلدان العربيّة اليوم، يبلغ نحو ٧٥ ألف نسمة، أكثرهم في سوريا ولبنان والعراق[٢]. ولهذه الكنيسة نشاطات كثيرة، فقد افتتحت مدرسة لتثقيف الكهنة في بغداد، ولها مطبعة حديثة لطبع الكتب الدينيّة والطقسيّة وغيرها، ومكتبة عامرة تضمّ مطبوعات كثيرة ونحو ١٥٠ ألف مخطوطة. كما أنّ لها جمعيّات خيريّة ولجانًا للشباب، وتقوم بمختلف النشاطات التثقيفيّة للمؤمنين، بالإضافة إلى إصدارها مجلّة "صوت من الشرق" في شيكاغو. واستطاع مار دنحا الرابع، مع عدد من أساقفته، القيام بزيارة أبناء كنيسته في روسيا حيث تفقّد أحوال رعيّته واطّلع على تنظيم كنيسته، وبهذه المناسبة طلب من أبناء كنيسته في روسيا أن يرسلوا بعضًا من شبابهم لكي يتلقّوا العلوم الدينيّة الكنسيّة في الدير الكهنوتيّ ببغداد. ولهذه الكنيسة علاقات أخويّة مع الكنيسة الكلدانيّة لالتزامها بالطقوس والأعياد والعادات المشتركة.

أمّا الفئة المعارِضة، أو المحافِظة، التي أطلقت على نفسها إسم "الكنيسة الشرقيّة القديمة"، فقد اختارت هي الأخرى، بعد وفاة البطريرك توما دومو الذي كان قد

---

١ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٤٠، وقد أورد هنا الحاشية التالية: لقد استقيت هذه المعلومات من فرعَي هذه الكنيسة، وخاصّة من القسّ يشو القس عوديشو الذي أشكر لطفه، ومن الظاهر أنّ في هذه المعلومات شيئًا من المبالغة.

٢ ـ إبراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة في الوطن العربيّ، مركز دراسات الوحدة العربيّة (بيروت، ١٩٨٨)؛ السمّاك محمّد، الأقليّات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٠) ص٢٤.

انتُخب في بغداد بحياة البطريرك شمعون إيشاي، مار إداي الثاني كيوركيس بطريركًا لها سنة ١٩٧١، وبقي مقرّه الرسمي في بغداد. ولهذه الكنيسة اليوم ستّ أبرشيّات: الأبرشيّة البطريركيّة، والتأميم والموصل والحسكة السوريّة والولايات المتّحدة الأميركيّة وملبار التي لها مطران وأسقف[1]. ومن أتباع هذه الكنيسة عدد منتشر في أستراليا ونيوزيلندة وغيرهما من البلدان الشرقيّة والغربيّة. ولا يتجاوز عدد المنتمين لهذه الكنيسة اليوم ٢٠٠ ألف نسمة، وعدد كهنتها نحو ٤٢ كاهنًا[2]. ولهذه الكنيسة نشاطات خاصّة في الهند حيث يقوم المطران والأسقف الهنديّان بتثقيف كهنتها ويديران مطبعة ويصدران مجلّة هناك[3].

---

١ ـ راجع كنيسة الملبار في الفصل التالي.

٢ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٤٠ ـ ٢٤١، وقد أورد هنا الحاشية التالية: بحسب المعلومات التي وردتني من مقرّ بطريركيّة هذه الكنيسة، وفيها أيضًا شيء من المبالغة إذ قد لا يتعدّى عدد المنتمين إليها ٥٠ ألف نسمة؛ المطران يتيم والإرشمندريت ديك، في تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٦٣ قد ذكرا أنّ العدد يربو على ٢٠٠ ألف.

٣ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٤١، الذي أورد في نهاية بحثه نداء إلى أبناء الكنيسة المشرقيّة السريانيّة جاء فيه: "لا يسعنا إلا أن نهيب بأبناء هذه الكنيسة مهما اختلفت وتباينت نزعاتهم الدينيّة أو القوميّة أن يتذكّروا أمجاد آبائهم القدامى ويحاولوا توحيد صفوفهم وتوجيه جهودهم ليجعلوا كنيستهم على مستوى مسؤوليّتها الجسيمة للقيام برسالتها في عالم اليوم، فتكون شاهدة أصيلة للقيم السميا والثقافة العالية والأخلاق الرصينة، لكي يرى جميع الناس أعمالهم الصالحة ومحبّتهم الأخويّة وتعاونهم البنّاء، فيمجّدوا أباهم السماوي".

الفَصلُ الخَامِس

الكَنائس الهِنديَّة

كَنائس المَلابَار والمَالِينكَار الهِنديَّة.

كَنائس المَلابار والمَالِنكار الهِنديَّة

يُعتبرُ قسم من كنيسة المالابار أو المَلَبار MALABAR الموجودة في جنوب غرب الهند، جزءًا من الكنيسة الكلدانيّة، لا بل الجزء الأكبر منها. ويعتبر أبناء هذه الكنيسة أنّها ترقى إلى الرسول القدّيس توما. وجاء لمؤرّخ وباحث في التاريخ السريانيّ، هو الأب "جان موريس فييه الدومينيكاني"، أنّ التقليد المحلّيّ يقول بأنّه حوالى سنة ٣٤٥ افتقر "مسيحيّو مار توما" إلى رجال دين فاتّصلوا بجثليق المشرق الذي أرسل إليهم "توما قِنايِة" التاجر يرافقه ٧٢ أسرة، وأربعة كهنة، وشمامسة، ومطران هو يوسف الرهاوي. ويستدرك الباحث بإيراد أنّه في التاريخ المذكور نظر، إذ كان آنذاك اضطهاد شابور الثاني قائمًا على قدم وساق[1]. ويضيف أنّ هناك تقليد آخر يقول بأنّه تمّ، حوالى التاريخ عينه، إنتقال شخصٍ يُعرف بـ"ثاوفيل الهنديّ" من الجزيرة العربيّة إلى الهند، إلاّ أنّه تجدر الملاحظة هنا أنّ كلمة "الهند" قد تعني، في تلك الحقبة، مناطق قريبة من بلاد العرب. وكذلك الأمر بالنسبة إلى "الهند" التي بشّرها، بين ٣١٠ و٣٤١ المطران "داود الفراثميشاني" المعروف بـ"داود البصري[2]".

---

١ ـ شابور الثاني: ملك فارس ٣١٠ ـ ٣٧٩، إبن هرمزد الثاني، لقّب بذي الأكتاف، قرّر نصّ الأفستا ٣٢٥، اضطهد المسيحيّين وحارب البيزنط.

٢ ـ فييه الأب جان موريس الدومينيكانيّ، كنيسة السريان الملبار، في كتاب: دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، دار المشرق (بيروت،١٩٩٧) ٢: ٢٤٣.

ويذكر الباحث أنّه بالنسبة إلى العلاقات بين كنيسة مار ماري[1] والهند، فإنّه لم يؤتَ على ذكرها قبل القرن السادس، إذ روى الرحّالة "إنيكوبلوستيس" أنّه كان آنذاك في الملابار[2] "أسقف رسم في بلاد فارس"، وكان كرسيّه تابعًا لمطرانيّة تلك البلاد، وظلّ لاحقًا بها حتّى القرن الثامن، حيث أصبح كرسيًّا لمطرانيّة مستقلّة. وظلّت العلاقات بين ذلك الكرسي ومركز الجثليق مستمرّة على شيء من الانتظام حتّى القرن السادس عشر. ولم يتمّ الانفصال إلاّ على يد البرتغاليّين بعد أن حلّوا في الملابار سنة ١٤٩٨ واتّصلوا بالسريان الشرقيّين، فظلّ بعضهم نسطوريًّا وصار بعضهم الآخر كلدانيًّا كاثوليكيًّا بحسب بعض المراجع[3]. بينما يذكر آخرون[4] أنّ بعضهم قد انضمّ إلى المونوفيزيّة وغيرهم إلى اللاتينيّة. ويذكر هذا المصدر الأخير نفسه أنّه في مطلع القرن السادس عشر، جاء إلى العراق أسقف كلدانيّ من الهند إسمه توما، وقدّم التماسًا إلى البطريرك إيليّا الخامس (١٥٠٢ ـ ١٥٠٤) يطلب منه أن يرسم أساقفة للهند، فرسم لهم ثلاثة أساقفة وأرسلهم إلى هناك[5]. وفي سنة ١٥٩٥ شكّ البابا اقليمنضس الثامن بصحّة عقيدة المطران ابراهيم، فرأى أنّه لا يمكن تفويض رعاية مسيحيّي القدّيس توما إلاّ لمطران يعيّنه البابا، وأعطى في هذا الصدد كامل الصلاحيّات لرئيس أساقفة "غوا" اللاتينيّ. وبعد سنوات معدودة، وتحديدًا في العام ١٥٩٩، التأم "ديابر[6]" برئاسة

---

١ ـ مار ماري: رسول قدّيس عاش في القرن الأوّل وبشّر في الشرق، يُنسب إليه تأسيس مدرسة "دير قنّى" في بلاد ما بين النهرَين.

٢ ـ مليبار وملابار MALABAR: الساحل الجنوبيّ الغربيّ للهند، يمتدّ من جوا إلى الطرف الجنوبيّ لشبه الجزيرة عند رأس كمورين.

٣ ـ فييه، كنيسة السريان الملبار، مرجع سابق، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.

٤ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٢٤.

٥ ـ أبونا، المرجع السابق.

٦ ـ لعلّ المقصود "مجمع كهنة".

المطران المذكور وثبّت اللتتنة على سائر الأصعدة إنْ في السلوك والقوانين أو في الطقوس. وعندما طالب كلدان ملبار البطريرك يوسف أودو (١٨٤٨ ـ ١٨٧٨)[١] بإلحاقهم بالبطريركيّة البابليّة وبتعيين رؤساء لهم من طقسهم، دارت مفاوضات عسيرة أدّت إلى خلافات طويلة إلى أن جاءت مبادرات جريئة من قِبَل البطريرك في شأن رسامة أساقفة لا ترضى بهم روما. فقامت إثر ذلك أزمة نتج عنها فئة جديدة في كنيسة الملبار ارتبطت بالأسقف "ملّوس" الذي عيّنه أودو، ثمّ أعلنت هذه الفئة خضوعها للبطريرك النسطوريّ سنة ١٩٠٧، وما لبثت أن انقسمت هي على نفسها. وكانت قد جرت، في أواخر القرن التاسع عشر، محاولة لربط كنيسة الملابار بالبطريركيّة الكلدانيّة، بيد أنّ روما أوقفتها وقرّرت إلحاق مسيحيّي القدّيس توما بها مباشرة[٢]. ونشأ من هؤلاء سنة ١٩٣٠ فرع حمل إسم "المالنكاريّين". وكما ذكرنا سابقًا تحت عنوان الكنيسة الكلدانيّة، فقد جاء في بعض الدراسات أنّ عدد أبناء كنيسة الملابار في الهند التابعين اليوم لروما مباشرة هو بحدود مليونَين ونصف المليون[٣]. بينما ذكر باحثون آخرون أنّ عدد أبناء هذه الكنيسة اليوم هو زهاء مليون ونصف المليون نسمة، يستعملون في الصلوات الطقسيّة اللغة الهنديّة بدلاً من السريانيّة[٤]. وذكرت دراسات أخرى أنّ عدد الكلدان الكاثوليك، المقيمين في البلدان العربيّة، يبلغ اليوم نحو مائتَي ألف نسمة، أكثرهم في العراق وسورية ولبنان، واعتبرت أنّ لهذه الكنيسة حيويّة ملحوظة، وقد عُقدت عليها آمال كبيرة لتبشير الهنود بالمسيحيّة[٥].

---

١ ـ بطريرك كلدانيّ انفصل زمنًا عن روما ثمّ عاد وخضع لها؛ راجع ما جاء عنه تحت عنوان الكنيسة الكلدانيّة.

٢ ـ فييه، كنيسة السريان الملبار، مرجع سابق، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.

٣ ـ أبونا، مرجع سابق، ص٢٣٤ ـ ٢٣٧.

٤ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، ص ٣٦٣.

٥ ـ إبراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة في الوطن العربيّ، مركز دراسات الوحدة العربيّة (بيروت، ١٩٨٨)؛ السمّاك محمّد، الأقلّيّات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٠) ص٢٤.

الفَصلُ السَّادِس

الكَنائِسُ الشَّرقِيَّة والمَجمَع الفاتيكانِيّ الثَّانِي

الكَنائِسُ الشَرقِيَة والمَجمَع الفاتيكانِيّ الثَّانِي؛

مُعاناةٌ في الشَرق ومِنَ الغَرب؛

فِي المَجمَع الفَتيكَاني الثَّانِي وبَعدَه؛

الكَنَائسُ الشَرقِيَة والحَرَكَة المَسكُونِيَة.

الكنائس الشّرقيّة
والمجمع الفاتيكانيّ الثّاني

رأى الشرقيّون الكاثوليك في المجمع الفاتيكانيّ الثاني الذي عُقد من سنة ١٩٦٣ إلى سنة ١٩٦٥، بموضوع "التجديد في العالم المسيحيّ"[١]، ليس فقط فرصة سانحة لإعادة النظر في وضعهم، ضمن الشركة الكاثوليكيّة، بل أيضًا وبشكل أخصّ، مناسبة مؤاتية لعرض التراث الشرقيّ العريق، بغية تحديد اللاهوت الكاثوليكيّ وحياة الكنيسة، بعودتها إلى الينابيع، ممّا يمهّد السبيل لإعادة الشركة بين الكثلكة ومجمل الشرق المسيحيّ.

مُعَاناةٌ في الشّرقِ ومِنَ الغَرب

عانى الشرقيّون الكاثوليك المتاعب الكثيرة بسبب انتسابهم إلى الكثلكة، في خلال العهد العثمانيّ. فسعت دولتا فرنسا والنمسا لدى الباب العالي في أمر إعتاق الكنائس الكاثوليكيّة من تبعة الكنائس الأرثوذكسيّة، والاعتراف بها ككنائس مستقلّة. فتحقّق

---

١ - وقائع المجمع في الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

لجميعها ذلك سنة ١٨٣٠ من خلال المعاهدات التي أعقبت حرب اليونان، وأصبح لها ممثّل واحد لدى الحكومة العثمانيّة، وهو كاهن أرمنيّ اتّخذ لقب "بطريرك"، وأضحى البطاركة الكاثوليك نوّابًا له. فكانت تلك المرحلة الأولى لاستقلال الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة. أمّا المرحلة الثانية، وهي اعتراف الباب العالي برئاسة واستقلال كلّ من البطاركة على طائفته، فقد حدثت في مناسبات مختلفة. واتّفق أن دخل إبراهيم باشا المصريّ إلى سورية سنة ١٨٣١، فتحسّنت أحوال الكنائس الكاثوليكيّة، وتمكّن البطاركة والأساقفة من مغادرة ملجئهم في لبنان، والعودة إلى أبرشيّاتهم، لا سيّما في دمشق وحلب، كما استطاعوا تشييد الكنائس والكاتدرائيّات. وعاد الآباء اليسوعيّون إلى الشرق، كما أقبلت آنذاك البعثات التبشيريّة الأميركيّة والبريطانيّة والروسيّة، فانتعشت الكنائس الكاثوليكيّة وازدهرت[١].

كانت الدولة العثمانيّة تعامل المسيحيّين، كما يفرض عليها الشرع الإسلاميّ، معاملة أهل الذمّة. فلم تتدخّل قطّ في شؤونهم الداخليّة، وتركت لهم الحريّة التامّة في أمور دينهم وكنائسهم وأنظمتهم الخاصّة. وفي أواسط القرن التاسع عشر، أخذت الدولة تعتبرهم، تدريجيًّا، كمواطنين عاديّين، وأصدرت سلسلة من الإصلاحات الملقّبة "بالتنظيمات"، رمت الدولة العثمانيّة، من خلالها، إلى اللحاق بالدول الغربيّة في مضمار التشريع والتعليم واستعمال الاختراعات والاكتشافات والعلوم العصريّة. وكان أوّل تلك الإصلاحات، مرسوم "قولخانة" الذي صدر بتاريخ ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٣٩، وهو المعروف بالخطّ الشريف، وقد أصدره السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١) عندما تسلّم زمام الحكم ونادى فيه بالمساواة بين جميع المواطنين، مسلمين كانوا أم

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٩٤.

غير مسلمين. ثمّ أصدر مرسومًا آخر، جليل الأهميّة، يُعرف بالخطّ الهمايونيّ، بتاريخ ١٨ شباط (فبراير) ١٨٥٦، لا تزال بعض موادّة سارية المفعول إلى اليوم، أكّد فيه السلطان، من جديد، على المساواة بين جميع المواطنين، واحترام عقيدة "النصارى" وشعورهم الدينيّ، وحقوق البطاركة وامتيازاتهم. وبدأت الحكومة العثمانيّة آنذاك تهتمّ بشؤون الكنائس الداخليّة، فوضعت لها قوانين منحت العلمانيّين بموجبها دورًا هامًّا في إدارة الملّة إلى جانب سلطة البطريرك، وقد أدّى تدخّل العلمانيّين في الشؤون المليّة إلى تحقيق بعض الإصلاحات، ولكنّه أثار أيضًا مشاكل كثيرة. وفي ٧ أيّار (مايو) ١٨٥٥ أُعفي "النصارى" من دفع الخراج والجزية، وكانوا يدفعونهما منذ الفتح الإسلاميّ، وتقرّرت مبدئيًّا إمكانيّة قبولهم في الجيش، ولم تحظَ هذه القرارات برضى الجميع، فاكتفت القيادة العثمانيّة بقبول نقد البدل. ولمّا تسلّم الحكمَ حزبُ تركيا الفتاة بعد إعلان الدستور في ٢٤ تمّوز (يوليو) ١٩٠٨، وعزل السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩، أُلغي البدل، ودُعي "النصارى" إلى خدمة العلم. ثمّ تصلّبت الحكومة تجاه "النصارى" وقامت بدعوة "التتريك"، التي ناهضت بها جميع العناصر غير التركيّة، وخصوصًا الأرمن واليونانيّين، وكانوا أكثريّات كثيفة في بعض مناطق الأناضول. ثمّ تسوّت قضيّتهم، فهجر كثير من الأرمن الأراضي التركيّة، وقامت اليونان وتركيا بعمليّة تبادل السكّان، فانتقل اليونانيّون إلى بلاد اليونان. وتحسّنت أوضاع المسيحيّين، قبيل الحرب العالميّة الأولى وبعدها، في لبنان ومصر أوّلاً، ثمّ في باقي البلاد العربيّة. وإذ شعروا بأنّهم مواطنون كسائر السكّان، ساهموا في رقيّ البلاد وبلوغ استقلالها الكامل، فشيّدوا مئات المدارس على مختلف درجاتها، وجلبوا المطابع ونشروا كبريات الصحف والمجلّات، وعكفوا على الكتابة والتأليف، وانتسبوا إلى الجمعيّات الوطنيّة لمقاومة العثمانيّين، ودخلوا الأحزاب، وانضمّوا إلى صفوف الجيش، وتسلّموا الوظائف العالية

في الدول العربيّة المستقلّة، فكان من بينهم الوزراء والقادة والزعماء والأدباء. واختلط المسيحيّون عامّة بمواطنيهم المسلمين في جميع ميادين الحياة الفكريّة والتجاريّة والصناعيّة والقوميّة، فعملوا بيد واحدة على تحرير البلاد العربيّة ودعم استقلالها ورفع مستوى الحياة فيها، وتهدّمت الفوارق الدينيّة المصطنعة، وتساوى الجميع أمام القانون. ولم ينسَ المغتربون المسيحيّون أوطانهم العربيّة، بل جلبوا إليها الأموال الطائلة، وأسّسوا فيها الشركات المتنوّعة، وكانوا صلة الوصل بين الشرق العربيّ ومختلف أقطار الدنيا[1].

على صعيد آخر، لم تتنكّر الكنائس الشرقيّة التي اتّحدت بكنيسة روما، من ماضيها، إلاّ لما كان مخالفًا للمعتقد الكاثوليكيّ. فهي لم تتنكّر لتقاليدها وطقوسها وشرائعها وتعاليمها الروحيّة. وقد تمّ الاتّحاد وفق قرارات مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩، الذي اعترف بشخصيّة الطوائف الشرقيّة، وأقرّ حقوق بطاركتها وامتيازاتهم. وجدّد هذه المقرّرات البابا بنديكتوس الرابع عشر في رسالته الخاصّة بالملكيّين، سنة ١٧٤٣، عبر رسالته "لما قلّد الربّ حقارتنا DEMANDATAM" التي منع بها الشرقيّين من انتحال الطقس اللاتينيّ. غير أنّ المحافظة على التوازن بين الحقوق الشرقيّة القديمة ومتطلّبات القوى المركزيّة في روما، كان أمرًا شاقًّا أثار في الكنيسة بعض المتاعب. فقد تربّى العديد من رجال الإكليروس الشرقيّ الكاثوليكيّ تربية غربيّة، ولم يفهم بعض الرهبان المرسَلين أهميّة التراث الشرقيّ العريق، وقام، حتّى في الدوائر الرومانيّة، تيّاران متناقضان، الواحد يحترم تقاليد الشرق ويدافع عنها، والآخر يحاول دمج الكنائس الشرقيّة تدريجيًّا بالنظام الغربيّ العام. وقد انتصر التيّار المركزيّ أحيانًا،

---

١ - يتيم وديك، مرجع سابق، ص٢٩٥ - ٢٩٦.

فاقتبست الكنيسة الشرقيّة الكثير من عادات الكنيسة الغربيّة، كما حدث في الهند والحبشة. وفي عهد البابا بيوس التاسع (١٨٤٦ ـ ١٨٧٨)، قويت في روما النزعة المركزيّة الخاصّة بإدارة الكنيسة. فقد أصدر سنة ١٨٦٧ مرسومًا بمناسبة ارتقاء المطران أنطونيوس حسّون إلى السدّة البطريركيّة الأرمنيّة، يحصر فيه انتخاب البطريرك والأساقفة في يدَي البابا نفسه. وطُبّق هذا المرسوم فعلاً في السنة التالية على الكلدان. ونتج عن تطبيقه اضطرابات عنيفة في الأوساط الشعبيّة، لم تنته إلاّ باستقالة البطريركَين، وببعض التنازل من قِبَل البابا. وكان البابا ينوي تطبيق المرسوم على سائر الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة لولا أنْ تدخّل في الأمر بطريركا الروم الكاثوليك والموارنة. وفي المجمع الفاتيكانيّ الأوّل (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠) أبدى معظم الأساقفة الشرقيّين وجهة نظر الكنائس الشرقيّة في عدم مناسبة تحديد عصمة البابا، لئلاّ تتّسع شقّة الخلاف بينهم وبين الأخوة الأرثذوكسيّين. ولمّا أصرّت الأكثريّة في المجمع على تحديدها، وافق على ذلك بطريرك الروم الكاثوليك غريغوريُس يوسف ووقّعه مع هذه الزيادة التي اقتبسها عن نصّ مجمع فلورنسا: "مع المحافظة على حقوق البطاركة"[1].

ثمّ تطوّرت الأمور، فأظهر البابا لاون الثالث عشر (١٨٧٨ ـ ١٩٠٣) تفهّمًا أوسع لأوضاع الكنائس الشرقيّة. وكان المؤتمر القربانيّ المنعقد في القدس سنة ١٨٩٣ نقطة انطلاق في تغيير موقف روما تجاه الشرق. لقد اتّصل موفد البابا في أثنائه بالأحبار الشرقيّين، واستمع إلى شكاويهم ورغباتهم، ورفع إلى البابا تقريرًا عنها. فاستدعى البابا مصافّ البطاركة إلى روما، وتحدّث إليهم مباشرة، وتفهّم أوضاع كنائسهم وأدرك

---

١ ـ بتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٩٢.

مطالبهم. وأصدر بعد هذا الاجتماع رسالته الشهيرة "مقام الشرقيّين" بتاريخ ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٤، التي أكّد فيها من جديد على المحافظة على التراث الشرقيّ النبيل، وفرض على المرسَلين الغربيّين في الشرق احترام الطقوس والتقاليد والسلطات الشرقيّة. وواصل البابا بنديكتوس الخامس عشر (١٩١٤ ـ ١٩٢٢) السير في هذا الاتّجاه القويم، وأسّس في الأوّل من أيّار (مايو) ١٩١٧ "المجمع الشرقيّ" وترأسه شخصيًّا[1]، ثمّ أسّس في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ المعهد العالي للدراسات الشرقيّة. وشجّع البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩) الغربيّين على الاطّلاع على الشرق والشرقيّين، وحرّض بعض الرهبانيّات الغربيّة على ممارسة فرائض الطقس الشرقيّ. وفي سنة ١٩٢٩ أمر بتشكيل لجنة خاصّة لجمع مصادر الحقوق القانونيّة الشرقيّة، فأكّد على استقلال القوانين الشرقيّة عن الشرع الغربيّ. وظهرت في عهد البابا بيوس الثاني عشر (١٩٣٩ ـ ١٩٥٨) بعض أقسام الحقوق القانونيّة الشرقيّة، فوحّدت بين مختلف تشريعات الكنائس الشرقيّة، إلاّ في بعض النقاط الطفيفة[2].

فِي المَجمَع الفَتيكَاني الثَّانِي وبَعدَه

أمّا الدور الذي رسمه الشرقيّون لأنفسهم، عمومًا، إبّان المجمع الفاتيكانيّ الثاني، فيتلخّص في الأمور التالية: "العمل على تجديد الكنيسة الكاثوليكيّة من خلال الشهادة لحياتهم الكنسيّة والليتورجيّة وعرض لاهوتهم الخاصّ المرتكز على تعليم الآباء؛ والسعي للتقارب مع الكنائس الشرقيّة الأرثذوكسيّة، مع الحرص على عدم توسيع الهوّة

---

١ ـ سوف يوسّع البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩) صلاحيّات المجمع الشرقيّ سنة ١٩٣٨ ليشمل اللاتين المقيمين في الشرق.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٩٠ ـ ٢٩٤.

التي تفصل بين العالمَين المسيحيَّين؛ حثّ المجمع على الإعتراف بالمكانة الخاصّة التي يحتلّها أبناء الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة ضمن الشركة الكاثوليكيّة، وبنظامهم المستقلّ كصورة مسبقة لِما ستكون علاقات الشرق بكنيسة روما، إذا ما أُعيدت الشركة الكاملة بينهما. وانبرت الكنائس الشرقيّة بجدّ لتحقيق مهامّها، إنّ إبّان المرحلتَين التمهيديّة والتحضيريّة، وإنّ أثناء انعقاد المجمع. وبذلت جهدًا جبّارًا يتعدّى إمكانيّاتها الضعيفة[1].

إنّ الفارق بين الدور الذي لعبته والتأثير الذي حقّقته الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة في كلّ من المجمعَين الفاتيكانيّ الأوّل والثاني، يعود إلى حدّ بعيد إلى موقف الحبرَين، يوحنّا الثالث والعشرين (١٩٥٨ ـ ١٩٦٣) وبولس السادس (١٩٦٣ ـ ١٩٧٨)، وهو الدور المحبّ والمشجّع، وإلى انفتاح آباء المجمع الذي جعل من أقليّة المجمع الفاتيكانيّ الأوّل (١٨٦٩ ـ ١٨٧٠) أكثريّة المجمع الفاتيكانيّ الثاني، كما يعود إلى قوّة وشجاعة شخصيّات مثل البطريرك الملكيّ مكسيموس الرابع[2] الذي عرف أن يحتاط بمعاونين جديرين، ويستقطب حوله جميع أعضاء سينودوسه، وكان الأحبار الملكيّون في اتّصال دائم أثناء المجمع مع ألمع اللاهوتيّين، ومجموعات الأساقفة الأكثر تأثيرًا وانفتاحًا[3].

بعد المجمع الفاتيكانيّ الثاني، لم يعد الشرقيّون يمثّلون مجرّد تقاليد شعبيّة غريبة، أو رواسب متأخّرة للماضي، فهم حملة رسالة خاصّة، ولهم ما يقولونه للكنيسة جمعاء،

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٧٩، ٢٩٠ ـ ٢٩٤.

٢ ـ راجع: الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٨٠.

رغم ضعفهم ونقائصهم، وإنّ صوتهم بوجه الإجمال كان مسموعًا. فلقد أثارت مداخلاتهم الإنتباه خصوصًا في مجال الليتورجيا، حيث دافعوا عن استعمال اللغات الحيّة ومشاركة الكهنة في القدّاس والمناولة تحت الشكلَين. وفي مجال لاهوت الكنيسة أبرزوا طبيعة الكنيسة كشركة سرّيّة، وشدّدوا على دور المصفّ الأسقفيّ والطابع السينودوسيّ في الكنيسة، وطالبوا بتخفيف المركزيّة في الكنيسة، وإصلاح الدائرة الرومانيّة. وأبرزوا عمل الروح القدس في التدبير الخلاصيّ، ولا سيّما دوره في سماع كلمة اللّه وإقامة الليتورجيا والأسرار وبناء الكنيسة. ومراعاةً للكنائس الشرقيّة، ولا سيّما التي في الشرق العربيّ، نُقل النصّ الذي يتحدّث عن العلاقات بالديانة اليهوديّة، من القرار المتعلّق بالحركة المسكونيّة الذي يُعنى أصلاً بوحدة الكنائس المسيحيّة، إلى مكانه الأنسب، إلى التصريح عن علاقات الكنيسة الكاثوليكيّة بالديانات غير المسيحيّة[1].

وفي المجال المسكونيّ عمل الشرقيّون الكاثوليك كثيرًا للانفتاح على الكنيسة الأرثذوكسيّة. وإنّ تأسيس أمانة السرّ لوحدة المسيحيّين مَدين إلى حدّ كبير إلى اقتراحاتهم. وأناطوا اهتمامهم أيضًا بكلّ المواضيع التي طُرحت في المجمع، بمصادر الوحي، والتربية المسيحيّة، والإلحاد، وأخلاقيّات الحياة الزوجيّة، والعلاقات بسائر الأديان. وقد ألقوا خطابات في هذه المواضيع، أو اكتفوا بتقديم عرائض خطيّة. وفي هذه المجالات كلّها حاول الكاثوليك الشرقيّون إسماع صوت تراث الشرق، ليرفدوا العقليّة الغربيّة بمزيد من التكامل والتوازن، ممّا يخلق في الكنيسة الكاثوليكيّة جوًّا يسهّل للأرثذوكس أن يعيشوا فيه، فيجعل إعادة الشركة المفصومة ممكنًا.

---

١ ـ المرجع السابق.

حتّـى إنّ الأرثذوكـس اليونـان، رغـم نفورهـم مـن الكـاثوليك الشـرقيّين، أقـرّوا بالدور الذي لعبته الكنـائس الشـرقيّة الكاثوليكيّـة فـي المجمـع، ولا سيّما كنيسـة الـروم الكاثوليك[1].

وإذا كـانت جميـع الشـؤون المرتبطـة بحيـاة الكنيسـة، قـد أثـارت اهتمـام الشـرقيّين الكاثوليك في المجمع الفاتيكانيّ الثاني، لكنّه من البديهيّ أنّهم كانوا معنيّين بشكل خـاصّ بكلّ ما سيعلن المجمع ويقرّر في شؤونهم.

أعدّ مشروع القرار المتعلّق بالكنـائس الشـرقيّة لجنـة كـان الشـرقيّون ممثّليـن فيهـا بشكل خاصّ. وكان أحد أعضائها البارزين المطران ناوفيطوس إدلبـي[2]، وقـد أُجريـت علـى هذا المشروع، بنـاءً علـى طلـب اللجنـة المركزيّـة للمجمـع، عـدّة تعديـلات واختصارات. وعُرض نصّ مشروع القرار على آباء المجمع في نهاية الجلسـة العامّـة المئة والثانية في ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤، واستغرق النقـاش ثـلاث جلسـات عامّة، وامتدّ حتّى بدء الجلسة العامّة المئـة والخامسـة فـي ٢٠ تشـرين الأول (أكتوبـر) ١٩٦٤، فتحدّث فيها ثلاثة آباء، قبل أن يُحال المشـروع علـى التصويـت. ولـم يقتصـر النقاش على فحوى القرار، إذ كان البعض يرفضونـه بجملتـه، لا بـل يـرون ملائمًـا أن يصدر قرار خاصّ بشأن الكنائس الشرقيّة. وقد عـارض القـرارَ مَن ارتـأوا أنّـه يشـدّد أكثر ممّا ينبغي على امتيازات الشرق، ومنهم مناصرو الحركة المسـكونيّة المتحمّسـون

---

١ ـ راجع: الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة؛ و كبكب د. وسام، مرجع سابق، ص٩٦؛ يتيم وديك، مرجع سابق، ص٣٨١.

٢ ـ ناوفيطس إدلبي (ت١٩٩٥) أسقف ملكيّ كاثوليكيّ، ترك سلسلة قيّمة في التراث العربيّ المسيحيّ؛ راجع الجزء الحـادي عشر من هذه الموسوعة.

الذين كانوا يخشون من امتعاض الكنائس الأرثذوكسيّة، لكون المجمع يشرّع بشؤون الشرق، ويجدّد اعترافه بالكنائس الشرقيّة التي تثير نفورهم. أمّا المدافعون عن القرار فرأوا أنّه، رغم ما فيه من نقص، فهو خير ما يمكن حصول الإجماع حوله، وله بُعد مسكونيّ هام، ويشكّل خطوة هامّة لإعطاء الشرق من جديد المكانة التي يستحقّها في إطار الكثلكة. وإن كان القرار في العديد من نقاطه، لم يأتِ بجديد. فهو يكرّر ما كان قد صرّح به باباوات العصر الحديث، بشأن كرامة الكنائس الشرقيّة، والمحافظة على طقوسها والضرورة المترتّبة على الغربيّين، ليتثقّفوا في أمور الشرق. إلاّ أنّ تأثير هذه النداءات كان ضئيلاً جدًّا في مجمل الكنيسة الكاثوليكيّة بأغلبيّتها اللاتينيّة. أمّا الأهميّة الأكبر لمضمون القرار، فهي في ما يعنيه من تعهّد من قبل مصفّ الأساقفة بجمله، إلى جانب الحبر الرومانيّ. وعلاوة على ذلك يشكّل القرار خطوة هامّة إلى الأمام، على طريق إحياء التراث الشرقيّ التليد. وهناك نقطتان لهما نتائج جزيلة الأهميّة: المساواة في الحقوق والواجبات ضمن الكنيسة الكاثوليكيّة بين الشرقيّين واللاتين؛ وإحياء حقوق البطاركة القديمة كما كانت عليه قبل الشقاق[1].

بعد المجمع الفاتيكانيّ الثاني، شكّل البابا بولس السادس لجنة لمتابعة العمل في التشريع الشرقيّ على ضوء مقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني. وانتهت الأعمال عام ١٩٩٠، ووقّع التشريع البابا يوحنّا بولس الثاني في ١٨ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٩٠ بحضور البطاركة الشرقيّين، وقدّمه رسميًّا لأعضاء السينودوس الرومانيّ في جلسة ٢٥ تشرين الأوّل (أكتوبر)، على أن يدخل حيّز التنفيذ في ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩١. ذلك أنّ الكنائس الكاثوليكيّة، في الشرق الأوسط، كانت قد ازدهرت بعد انتهاء

---

١ - راجع ما جاء في القرار بهذا الخصوص في الجزء العاشر والجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة.

الإحتلال العثمانيّ، فتعدّدت المدارس العلميّة والمهنيّة في مختلف أقطار البلاد العربيّـة، وانتعشت المؤسّسات الاجتماعيّة مـن مستشفيات وملاجئ وميـاتم، ونشـطت المشـاريع الدينيّة والتربويّة من حركات كشفيّة ونواد ومنظّمات كاثوليكيّة، فنمت الحيـاة المسيحيّة في القلوب رغم الصعوبـات التـي نجمـت عن اقتحـام المدنيّـة العصريّـة ديـارَ الشـرق العربيّ، تلك المدنيّة الملوّثة بالفساد والإلحاد. وبقيت تلك الكنائس، مع ارتباطهـا جميعًا بكنيسة روما، يعيش كلّ منها مستقلاً بحسب أنظمته الخاصّـة، كما كـان فـي العهد العثمانيّ. وقد أثارت هذه "الانعزاليّة"، في الإدارة والتنظيم، صعوبات عمليّـة، وشكّلت عـاملاً مـن عوامل الضعـف فـي الكنيسـة. وإذ شـعر كـلّ مـن كنيسـة رومـا والكنـائس الكاثوليكيّـة الوطنيّـة بهذا التفكّك الإداريّ، أصـدرت رومـا التشـريع الكنسـيّ الشـرقيّ الموحّد، إلاّ في بعض تفاصيل طفيفة، الـذي أشـرنا إلـى أنّـه دخل حـيّز التنفيذ فـي ١ تشرين الثاني (نوفمبر)١٩٩١. فأخذت تلك الكنائس نفسها تتقرّب من بعضهـا البعض، وتنظّم المجالس المشتركة للتداول في مختلف الأمور العامّة، على أساس القطر الواحد، لا على أساس الملّة المنعزلة، فزال بعض الحدود الذي كان قائمًا قديمًا، وإن كـان هذا التطوّر لم يتبلور بعد في صيغة قانونيّة إلزاميّة. وهاجر كثيرون مـن مسيحيّي الشـرق إلى أوروبّا والأمـيركتَين، حيث قـامت جاليـات كاثوليكيّـة هامّـة، ناقلـة معهـا الطقـوس الشرقيّة إلى بـلاد المهجـر. وأُقيم للمغتربين نظـام خـاصّ مـن رعايـا ونيابـات أسـقفيّة فأبرشيّات، وهدف الكنيسة في ذلك المحافظة على صبغتهم الشرقيّة ومنعهم من الذوبان في المجتمع الغربيّ اللاتينيّ. ومع انتعاش الحركة المسـكونيّة مؤخّـرًا، أخـذت الكنـائس الكاثوليكيّة تشعر بألم انفصالها عن شقيقاتها الأرثذوكسيّات، وتحسّ بأنّ لهـا دورًا هامًّا تقوم به بين العالمَين الغربيّ والأرثذوكسيّ، فراحت تعمل على إزالة كلّ مـا مـن شـأنه أن يكون عقبة في وجه الوحدة المسيحيّة الشاملة، فتمسّكت علـى السـواء بولائهـا التـامّ

للكرسيّ الرومانيّ، وحافظت علــى شـخصيّتها الشـرقيّة وتراثهـا التليـد، لتكـون صـورة محبّبة للوحـدة المنشودة بين الشـرق والغـرب، وقـد تجلّـى دورهـا هذا أثنـاء المجمـع الفاتيكانيّ الثاني[1].

الكَنَائــسُ الشَّرقيَّــةُ والحَركَةَ المَسكُونِيَّة

على الصعيد المسكونـيّ، لعبت الكنائس الشرقيّة في المجمع الفاتيكـانيّ الثـاني دورًا هامًّا داخل "حركة التجديدات الطقسيّة" والمساعي في سبيل الوحدة المسيحيّة. فـازدادت أهميّتها في العالم المسيحيّ، لا سيّما بعد أن استعاد الكاثوليك الشرقيّون حرّيّتهـم الدينيّـة فـي روسـيا ورومانيـا وسـائر دول أوروبـا الشـرقيّة عـام ١٩٩٠. وانضمّـت الكنــائس الشرقيّة الكاثوليكيّة في الشرق العربيّ إلــى "مجلـس كنـائس الشـرق الأوسـط" فـي عـام ١٩٨٩. وهو المجلس الذي كـان يقتصـر، عنـد تأسيسـه سـنة ١٩٧٤، علـى الإنجيليّيـن والأرثذوكس[2].

---

١ - يتيم وديك، مرجع سابق، ص٢٩٣ ـ ٢٩٧.

٢ - يتيم وديك، مرجع سابق، ص ٢٩٧.

NOBILIS

بيروت